تراث

كمال النجمي

يوميات المغنين والجواري

الجزء الثاني

حكايات من أغانى الأصفهانى

دار الهلال



حكايات من أغانى الأصفهانى



بقلم

كمال النجمى

دار الهلال



الغلاف بريشة : الفنان محمد أبو طالب
الرسوم الداخلية بريشة : الفنان صلاح بيصار

مقدمة

هذا هو الجزء الثانى من «يوميات المغنين والجوارى» .. يصدر بعد فترة قصيرة من صدور الجزء الأول الذى استقبله القراء استقبالا حميما ، فأفاضوا عليه التشجيع والاحتفاء ، كما أضفى عليه كبار الكتاب وفضلاء النقاد عطفا سابغا ، وحيوه بكلمات بليغة مضيئة ، شجعتنا على المسارعة بإصدار هذا الجزء الثانى وهو امتداد للجزء الأول ، واستكمال لقصص المغنين والمغنيات فى العصرين الأموى والعباسى الأول كما ذكرها أبوالفرج الأصبهانى فى «كتاب الأغانى» الذى طالعه القراء العرب القدماء فى الأرض الممتدة بين الأندلس والهند أو الصين ، ولبثوا يطالعونه على اختلاف الأحوال وتقلبات الزمان أكثر من ألف عام ..

وقد نسجنا هذا الجزء الثانى على المنوال الذى نسجنا عليه الجزء الأول ، ومنهجنا فيهما نسيج وحده فيما نظن ، لأننا لم نقصد به «تلطيف» حجم كتاب الأغانى الضخم ، ولاتجريده من الاسناد والاستطراد ، ولا اختصاره وانتقاء شذرات مما فيه ، ولاتحويل قصصه العبقة إلى مادة درامية للشاشة الكبيرة أو الصغيرة أو ميكروفون الاذاعة ، وإنما ذهبنا فى النظر إلى كتاب الأغانى الجليل الشأن مذهبا آخر يعدل بنا عن ابتذاله فى الاختصار والتجريد ، أو تمزيقه تمزيقا مرئيا أو مسموعا فى الصور المرئية أو الكلمات الأثيرية .. وقدمناه فى شكل يوميات تكتبها الشخصيات التى عاشت على صفحاته الممتعة أجيالا بعد أجيال ..

وفى الجزء الأول من «يوميات المغنين والجوارى» كما فى هذا الجزء الثانى ، لاتتعاقب القصص والحكايات والأحداث كما يتعاقب الليل والنهار ، يوما فى إثر يوم ، وساعة موصولة بساعة ..

فإذا كتب المغنى مذكرات «اليوم الأول» ثم مذكرات «اليوم الثانى» فليس معنى ذلك أن هذين اليومين متعاقبان يأخذ أحدهما بتلابيب الآخر ، ولكن المقصود بالايام هنا قد يكون سنة أو سنين أو شهورا أو أسابيع أو أياما .. وربما ساعات !

والمهم فى جميع الأحوال أن تترابط الأحداث متجهة إلى هدفها مهما اتسعت الفوارق الزمانية والمكانية بينها ، أو تقاربت ، أو اتصلت بلا فارق فى الزمان والمكان

وقد تمتد يوميات مطرب أو مطربة فوق عشرات السنين ، وقد تنكمش فوق لحظات فى اليقظة أو المنام .

وفى هذا الجزء الثانى نواصل الأسلوب الذى كتبنا به الجزء الأول ، فنحاول الاقتراب قدر المستطاع من أسلوب مؤلف كتاب الأغانى احتفاظا بشىء من رائحة الماضى العطرة .

ولغة مؤلف كتاب الأغانى هى لغة بلغاء القرن الرابع الهجرى الذى كان العصر الذهبى للأدب والفن والفكر ، ومازال أثره باقيا فنيا حتى اليوم لأنه العصر الذى تكونت فيه نفسية الأمة العربية وعقليتها ومزاجها على مثال غير مسبوق ، ومازال هذا التكوين العقلى والنفسى والمزاجى يعمل فينا عمله ، ولايصح أن نتجاهله ، ولايمكن الغاؤه بمرسوم ، ولايقدر على تعديله وتحويله وتطويره إلا مرور السنين الطوال ..

ونرجو بهذا الجزء الثانى من كتابنا أن نسهم فى توثيق الصداقة التى حاولنا أن نعقدها بجزئه الأول بين القارىء العربى العصرى وبين كتاب الأغانى العظيم الذى قرأته الأمة العربية جيلا بعد جيل .

كمال النجمى

المغنية الأولى



● اليوم الأول

أنا « جميلة » هذا اسمى ، وهو ايضا صفتى !..

فأنا ـ بإجماع الناس ـ احدى الجميلات فى المدينة ، وجها وقواما ، ومن أظرفهن وأبرعهن أدبا وكلاما ، أما صوتى فأنا فيه الجميلة المتفردة بالجمال كله والحمد لله على نعمائه .

ولا أحدثكم كثيرا عن صوتى فاسألوا الناس عنه ، وانظروا اليهم حين يسمعون غنائى كيف ينعرون من الطرب ، أو يُغْشَى عليهم من الوجد !..

نشأت مولاة فقيرة عند بعض ابناء الانصار فى المدينة ، وبدأت حياتى خادمة عندهم ، حتى هيأ الله لى ان اسمع غناء مطرب المدينة العظيم « سائب خاثر » .. فأخذت عنه الفن وتعلمت الضرب بالعود ، وحفظت ادوارا غنائية لا تحصى حتى برعت فى الضرب والغناء ، وسمعنى الناس فقالوا : ان جميلة هى صاحبة الصوت الاجمل فيما سمعنا من اصوات المغنيات والمغنين جميعا

وصرت بما اخذته من غناء سائب خاثر اول مغنية ، تتحرك شفتاها بالغناء العربى المتقن الصنعة فى بلاد العرب والمسلمين .. وقال الناس ان جميلة اعلم خلق الله بالغناء ، وقال بعض كبار المغنين : أصل الغناء جميلة ، ونحن فروعه ، ولولا جميلة وما تعلمناه منها لم نكن نحن مغنين !..

أما أنا فأقول : لولا سائب خاثر لما اهتديت الى الغناء العربى المتقن ، فهو فى رأيى اول مخترعى هذا الغناء ، ولست الا تلميذته فيه !.. ولم استمع قبله الا الى « طويس » .. اول من غنى فى المدينة ، لكن غناء طويس كان على الدّف ، فلم يكن يعرف الضرب بالعود ، ولا الغناء المتقن الذى بنى اصوله وقواعده سائب خاثر فى المدينة وابن مسجح فى مكة ، وشاركهما غيرهما فى ذلك

وقد سمعت غناء المطرب الفارسى الاصل « نشيط » الذى كان يلم بضرب العيدان الفارسية ويغنى بالعربية ، الا ان سائب خاثر هو اول من استبحر فى بناء اصول الغناء العربى المتقن على أوتار العود الفارسى بعد ان انطق أوتاره نطقا عربيا .. وعن هذا الرجل فى المدينة ، ومن عاصره من مطربى مكة ، اخذ مطربو ايامنا هذه صناعة الغناء المتقن وزادوا فيها ونافسونى الا اننى تقدمتهم جميعا !.. وبما غنى هؤلاء وغنيت انا صار الغناء العربى الجديد المتقن صرحا باذخا فى مدة يسيرة ، وتعشقه الناس ، وطلبه الخلفاء والكبراء .

قال لى سائب خاثر يوما وانا اسأله عن اصل صناعته فى الغناء

ـ جئت الى المدينة طفلا ضمن بعض السبى الفارسى ، فنشأت على لغة العرب وشعرهم وادبهم وذوقهم .. ولما كبرت سمعت بعض العمال الفرس ممن اجتلبوا لبناء القصور والدور فى المدينة ، يغنون غناءهم بلغتهم الاعجمية ، ويضربون بالعيدان الفارسية ، فتعلمت منهم الضرب ، وادخلت فى بعض ألحانهم شعرا عربيا بدلا من رطانتهم ، ونفيت من ألحانهم مالا يوافق ذوق العرب ، ومالا يدخل فى توزين الكلمات العربية واوزان الشعر العربى ، فجاءت ألحانى مبتكرة عجيبة ، مال اليها النبيل الهاشمى المعطاء عبد الله بن جعفر بن ابى طالب ، فغمرنى بالجوائز ، ولكنى لم اهجر مهنتى وهى بيع الطعام ، فأنا طباخ ماهر فى الطبخ مهارتى فى الغناء ، وقد وسع الله رزقى فتزوجت أربع زوجات ، وانجبت بنين وبنات !..

ضحكت وقلت لاستاذى :

ـ فمالى اراك لا تغنى الا لتطرب عبدالله بن جعفر وحده ؟!

قال :

ـ بل غنيت للخليفة معاوية بن ابى سفيان وابنه يزيد ، فأما يزيد فقد غمرنى بالعطاء وقال لى معابثا : ياخاثر .. ارأيت كيف اخثرت لك العطاء ؟! يعنى انه زاد لى فيه !.. واما معاوية فحين صحبنى ابن جعفر الى مجلسه وطلب اليه قضاء حوائجى ، حدجنى بنظرة وقال لابن جعفر : وماذا يصنع سائب خاثر هذا مما يستحق ان نكافئه عليه ؟! .. قال له ابن جعفر : انه يروى الشعر ويعمل فى تحسينه !.. قال معاوية : وهل نكافىء كل من يروى الشعر ويعمل فى تحسينه ؟! .. ثم امرنى معاوية « بتحسين » الشعر فى حضرته ، فغنيت لحنا من ابرع ألحانى فى شعر جيد ، وكان معاوية لا يسمع الغناء الا نادرا ، فلما غنيته قال لابن جعفر : ما رأيت مثل هذا الرجل فى تحسين الشعر !..

ضحكت وقلت لاستاذى :

ـ اتظن ان معاوية لم يكن يعرف الغناء ، وانه ظن ماسمعه منك هو من قبيل « تحسين » الشعر فقط ؟!

قال

ـ رأيت معاوية ذات ليلة ـ وكان يزور المدينة قادما من مكة عائدا الى دمشق ـ فوقف لحظة عند منزل ينبعث منه غناء ، ثم انصرف عنه وهو يقول : استغفر الله !.. استغفر الله !..

ورأيته فى الليلة التالية يجلس مع سراة المدينة من ابناء المهاجرين والانصار ، فاندفعت بين السماطين فغنيت قول حسان بن ثابت :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى .

وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

فأصغى معاوية مستحسنا غنائى !..

● اليوم الثانى :

كبر سائب خاثر سنا الا انه لم يضعف ، وان كان قد اجتنب الغناء الا لعبد الله ابن جعفر ، وصار المغنون والمغنيات يقصدونتى للتعلم ولا يقصدونه ، وقد اخذ عنى هذا الفن اكبر مطرب فى المدينة الان وهو « معبد » .. وكذلك ابن عائشة وسلامة القس وحبابة وغيرهم ..

والناس يرسلون جواريهم الى بيتى ليتعلمن منى فيتزاحمن حولى ، فربما انصرف اكثرهن ولم يأخذن شيئا ، وربما اعجز لتزاحمهن حولى ، عن مطارحة الغناء ولو واحدة منهن فقط ..

وقبل ان اتحرر من الرق واستقل بنفسى واعيش فى بيت أملكه ، كسبت لمن كنت ملك يمينهم من موالىَّ مالم يكن يخطر لهم ببال حتى ملأت الاموال خزائنهم ..

واحمد الله اننى الان بلا منافس فى الغناء من مغنية او مغن ، فى مكة والمدينة والشام والعراق .. وقد جاء الى المدينة منذ ايام عظماء مطربى مكة : ابن سريج والغريض وابن مسجح وابن محرز ، فالتقوا بمطربى المدينة : معبد وابن عائشة وغيرهما فتغنوا بالحانهم واختلفوا ايهم اجود صناعة واجمل صوتا ، فجاءوا يحتكمون الىّ فيما اختلفوا فيه

سمعتهم واحدا بعد الاخر ، وقلت لهم كلكم محسن وكلكم مجيد فى معناه ومذهبه من الصناعة .. أما ابن سريج فلو سمعته الثكلى لطربت لصوته وداخلها السرور .. وأما معبد فنسيج وحده بجودة تأليفه وعذوبة غنائه .. ولابن محرز سبق واولية فى الغناء المتقن ، لا ينكر احد فضله واستاذيته ، فهو فى هذه الصناعة مخترع للاصول كسائب خاثر وابن مسجح ثم وصفت الاخرين وقرظتهم ، فسرهم ذلك سرورا عظيما

دعوت بالطعام ، وجلسوا عندى الى الليل ، فغنيتهم ، حتى صاح الغريض طربا :

ـ ياسيدتى وسيدة كل من حضر هنا من فحول صناعتنا ، والله مانحن الا عيال عند قدميك !..

ضحكت وضحكوا ، ودعوت لكل منهم بعود ، واخذت عودى ، فضربت ، وقلت لهم : اضربوا معى بضرب واحد ، ففعلوا ، وغنيت وحدى ، وانا وهم على ضرب واحد بالعيدان ، ثم قلت لهم : غنوا اللحن معى .. ففعلوا وصرنا نضرب ونغنى معا ، ونحن اجمل اصوات خلقها الله ، فلما انقضى مجلسنا قال ابن سريج

ـ لا اعرف يوما واحدا ولا ليلة واحدة مثل هذا اليوم الذى عشناه ، ومثل هذه الليلة !..

● اليوم الثالث :

جنود الخليفة الجديد يزيد بن معاوية حاصروا المدينة ثم دخلوها واستباحوها وقتلوا ونهبوا وفعلوا الافاعيل ، فاحتميت ببعض منازل الهاشميين ثم انتقلت الى بعض منازل الامويين ، لان جنود يزيد لم يقتحموها ..

فلما انجلت الغمة اخذ الناس فى احصاء من قتلهم عسكر يزيد بن معاوية ، فاذا من بينهم سائب خاثر !..

ادهشنى انهم قتلوه ، فما هو الا مغن مسالم لا شأن له بالسياسة ، وقد غنى ليزيد وابيه ، وهما يعرفانه ، ولا اظن ان يزيد امر بقتله !..

سأله احد رؤساء الجند عن صناعته ، وهو مقبوض عليه مكبل بالاغلال ، فقال سائب

- انا مغن ولا شأن لى بالعصيان فى المدينة !..

قال رئيس الجند

- فلماذا وجدناك مختبئا فى بستان ترتعد من الخوف ؟

- كنت انتظر مناداتكم بالكف عن استباحة المدينة والامتناع عن قتل الناس !

- غن لنا اذن !..

فغنى سائب خاثر وهو ينظر الى السيوف المشرعة ويرى الموت فيها ، فلما فرغ من غنائه ، قالوا له :

- احسنت والله !..

ثم ضربه احدهم بالسيف فقتله ، وضجوا ضاحكين !

هكذا انتهت حياة هذا العبقرى الذى كان من بناة الغناء العربى المتقن !.. ويحز فى القلب ان اخر ساعات حياته كانت غناء تحت السيوف المصلتة على عنقه ، وان القتلة احتزوا حنجرته مع اخر نغمة اسمعهم اياها !..

هل عرف قاتلوه الغلاظ الاجلاف من قتلوه ؟!..

● اليوم الرابع

قيل لى اليوم ان يزيد بن معاوية حين وضعوا بين يديه الجريدة الطويلة التى تحوى اسماء من قتلهم جنوده فى المدينة ، مرت عيناه على اسم مطربه القديم سائب خاثر ، فقال متجاهلا

- من سائب خاثر هذا ؟!

قالوا

ـ هو يامولانا سائب خاثر المغنى !..

قال يزيد كأنه كان ناسيا ثم تذكر

ـ ويله !.. ماله ولنا ؟! .. ألم نحسن اليه ونصله ونخلطه بأنفسنا ، فما الذى حمله على عداوتنا ؟! لا جرم ان بغيه صرعه !..

ثم صمت قليلا متفكرا واجما وقال :

ـ إنا لله وإنا اليه راجعون !.. هل بلغ القتل الى سائب خاثر وطبقته من الموالى وحشوة الناس ؟! .. ماظن انه بقى بالمدينة احد الا من عصمه الله من القتل !..

ثم ثار صاخبا وصاح :

ـ قبحكم الله من عسكر .. ما ارسلتكم لتقتلوا كل من وجدتموه مستترا فى حائط !..

هكذا سفكوا دم سائب خاثر دون ان يستطيع صديقه العظيم عبد الله بن جعفر حمايته .. فإن جعفرا نفسه كان محتاجا الى من يحميه فى تلك الايام الدامية أيام وقعة « الحرة » الرهيبة !..

● اليوم الخامس :

عادت الحياة الى المدينة منذ زمن .. ابتعد الناس عن كل شىء الا عن مطالب حياتهم اليومية ، وازداد تعلقهم بالغناء .. فلم يبق فى الدنيا غيره من شىء جميل !..

جلست للناس فى منزلى مجلس الغناء فكثروا حولى ، وجاء عبد الله بن جعفر ، فقمت وقام الناس فتلقيته وقبلت يديه ورجليه وجلس فى صدر المجلس ، ورأيت كثرة الناس فأشرت اليهم ، فانصرفوا وبقى الشريف ابن جعفر واصحابه .. فقلت له :

ـ ياسيدى وسيد آبائى وموالى ، كيف نشطت الى ان تنقل قدميك الى خادمتك فى منزلها ؟!..

قال متبسطا

ـ ياجميلة .. علمت انك حلفت الا تغنى الناس الا فى منزلك ، فأحببت الاستماع ، وكان طريقى اليك مادا فسيحا

قلت والفرح يغمرنى

ـ جعلنى الله فداءك .. هلا أمرتنى فصرت اليك وكفرت عن يمينى بالصدقة او بالصوم ؟!..

قال فى تواضع :

ـ لا أكلفك ذلك ، وبلغنى انك تغنين بيتين لامرىء القيس كان الله انقذ بهما جماعة من المسلمين من الموت وهما :

ولما رأت ان الشريعة همها
وان البياض من « فرائصها » دامى
تيممت العين التى عند « ضارج »
يفىء عليها الظل عرمضها طامى

فلما غنيت ، سبح ابن جعفر تسبيحا طويلا ، ثم سأله بعض من كان معه :

ـ كيف انقذ الله تلك الجماعة من المسلمين بهذين البيتين ؟!

قال

ـ أقبل من اليمن قوم يريدون لقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، فضلوا الطريق ، ومكثوا اياما لايجدون قطرة ماء حتى اوشك العطش ان يقتلهم ، فأقبل راكب على بعير وسمع احدهم ينشد هذين البيتين فى صوت خافت ، فقال الراكب لهم والله ماكذب امرؤ القيس فهذا المكان اسمه « ضارج » وهذه عين الماء تحت عيونكم ، وهى « الشريعة » التى فيها اعذب الماء ، فلا ترتعد فرائصكم ولا تدمى ان شاء الله !

ففاءت جماعة المسلمين الى الظل عند عين الماء وشربوا حتى ارتووا وحملوا من الماء ما احتاجوا اليه فى سفرهم حتى بلغوا مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

استحسن الناس هذا الخبر من ابن جعفر ، ثم نهض ونهضوا معه ، فما رأيت مجلسا كان احسن من هذا المجلس !..

يوميات جميلة :

أحــــزاب الغنـــاء



فى ايامنا هذه ينقسم عشاق الغناء حزبين اما اكبرهما وأكثرهما عددا ، فحزب الغناء المتقن الذى لايؤديه المطربون الا على ضرب العود ، بعد ان جعلوا من العود الفارسى عودا عربيا

واما الحزب الاصغر ، فحزب الغناء المتقن الذى لم يأخذ بالضرب على العود ، ويرى ذلك تقليدا للفرس والروم

ولكن الناس يسمعون المطربين والمطربات من الحزبين جميعا فاذا غنى ابن سريج على العود التف حوله الناس وطربوا !.. واذا غنى طويس ونقر على الدّف ومشى وهو يغنى مشية اهل الحجاز فى مثل هذا الموطن ، اشتد طرب الناس ، ولم يأبهوا لغياب العود ، ولم ينكروا النقر على الدّف ، فكل غناء متقن تغنيه حنجرة صداحة ، هو عندهم غذاء القلب والروح !

بالأمس سمع الناس فى بيتى ابن سريج وطبقته من المغنين الضاربين بالعيدان

واليوم اجتمع الناس عندى يسمعون طويسا واصحابه من المغنين الناقرين على الدفوف ..

ابتدأ طويس فغنى :

قد طال ليلى وعاد لى طربى
من حب خود كريمة الحسب
غراء مثل الهلال آنسة
أو مثل تمثال صورة الذهب

فأثنيت عليه ، وصاح الناس طربا !.. ثم غنى المطرب « الدلال » ومعه المطربون « فند » و« رحمة » و« هبة الله » جميعا صوتا واحدا فاشتد طرب الناس ، واثنيت انا على « الدلال » واصحابه ، ثم قلت للمطرب المخضرم « هيت » .. وهو ذو فكاهة ودعابة :

ـ يا ابايزيد .. اننا نجلك لكبر سنك ، فلا نكلفك ان تغنى لنا وتتعب ، وقد عرفنا احسانك فى هذه الصناعة قديما !..

قال هيت معابثا :

ـ اجل ياماما !..

فضحكت وضحك الناس ، ثم قلت للمطرب « برد الفؤاد » وزميله « نومة الضحى » :

ـ هاتيا معا لحنا واحدا

فاستحسن الناس اقتراحى ، وغنى المطربان لحنا جميلا طرب له الحاضرون ، واشرأبوا ينتظرون مايكون بعد ذلك ..

ثم ضربت ستارة واجلست وراءها كل من فى البيت من الجوارى المغنيات ، بأيديهن العيدان فضربن وضربت معهن ، فتزلزل الناس طربا من اجتماع الضرب المتقن على أربعين وترا ، وبكى الكثيرون حرقة ووجدا ، وتذكر كل عاشق جرحه الذى فى قلبه !..

وكانت عزة الميلاء المطربة البارعة المطبوعة الجميلة ، حاضرة مجلسنا ، فطلبت اليها ان تغنى ، فغنت احسن غناء باحسن حنجرة ففتنت السامعين ، فقلت لها :

ـ ياعز انك لباقية على الدهر !.. فهنيئا لك حسن هذا الصوت ، مع جودة الغناء !..

ثم قلت لسلامة القس وزميلتها حبابة :

ـ هاتيا معا لحنا واحدا ..

فغنتا :

ومن عجب انى اذا الشوق جننى
اقوم من الشوق الشديد واقعد
أحـن اليكم مثلما حنَّ تائق
الى الوِرْدِ عطشان الفؤاد مُصَرَّدُ
ولـى كبد حرى يعـذبها الهـوى
ولـى جسـد يبـلى ولا يتجـدد

فاستحسن الناس غناءهما ، ولكنهم لم يتبينوا فرق ما بين صوت سلامة وصوت حبابة ، ولا مابين صنعة سلامة وصنعة حبابة ، لان الصوتين خالط احدهما الاخر ، وخالطت صنعة هذه صنعة زميلتها اما انا فما فاتنى فضل سلامة على حبابة .. ولو غنت سلامة وحدها ، ثم اعقبتها حبابة لعرف من له ذوق وفهم فرق الصوت والصنعة عندهما .. وشتان بينهما .. سلامة هى الاجود حلقا وصناعة ..

ثم قلت للجوارى الثلاث الجميلات « فرعة » و« بلبلة » و« لذة العيش » وكنت منذ الصباح اطارحهن الالحان واثقفهن

ـ هاتين لحنا واحدا باصواتكن جميعا ..

فاندفعن كأنهن صوت واحد فغنين :

لعمرى لئن كان الفؤاد من الهوى
بَغَى سقما إنى اذن لسقيم
فأقسم ما صافيت بعدك خلة
ولا لـك عندى فـى الفؤاد قسيم

هكذا ، قضينا شطر الليل على هذه الحال ، لم أترك مغنيا ولا مغنية ممن حضر مجلسى الا أمرته بالغناء ، فكلهم اطاع امرى وسره انى استمعت اليه مع الناس .. فما رأيت ولا رأى الناس مجلسا أحسن منه !..

● اليوم الثانى :

قعدت اليوم على كرسى فى مدخل منزلى وقلت لحاجبتى :

- لا تحجبى عنى احدا اليوم . واقعدى بالباب ، فكل من يمر فاعرضى عليه مجلسى وقولى له جميلة تدعوك !..

غصّت دارى بالناس حتى صعدوا الى العلالى والسطوح ، واشتد الحر فأمرت باسقائهم الجلاب المثلج ، والماء المبرد وقامت جوارى منزلى على رءوس الناس بالمناديل والمراوح الكبار على رءوس الناس ووجوههم .. فاستروحوا الهواء والعطر من ايدى الجوارى !..

ثم قمت فقلت للناس

- انى قد رأيت فى منامى شيئا افزعنى وارعبنى وقد خفت ان يكون حان اجلى ، وليس ينفعنى ان مت الا صالح عملى ، فرأيت ان اترك الغناء كراهة ان يلحقنى منه شىء عند ربى !..

وقف شيخ ذو لحية بيضاء فقال :

- وفقك الله ، وثبتك على هذه النية الصالحة !..

صاح اخرون

- بل لا حرج عليك ياجميلة فى الغناء !..

كثر اختلاف الناس ، بين مستحسن لانقطاعى عن الغناء وان كانوا يحبونه منى خشية ان يلحقنى منه فى آخرتى ما اكره ، وبين مستنكر لما اعلنت من رغبتى فى هجر الغناء ، حتى وقف من بينهم شيخ ذو سن وعلم وفقه وتجربة فقال :

- قد تكلمت الجماعة ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، ولم اعترض عليهم فى قولهم ، ولا شركتهم فى رأيهم ، فاستمعوا الان لقولى وانصتوا ..

فسكت القوم وتطاولت اليه اعناقهم ، فقال :

- يامعشر اهل الحجاز .. انكم متى تخاذلتم فشلتم ووثب عليكم عدوكم .. وقد انكر عليكم بعض اهل العراق ماتسمعون من هذا الغناء الطيب الذى هو تحسين

للكلام بالصوت الحسن ، ولكنكم انتم لا تنكرونه ، ولا يدفعه عابدكم وعالمكم وشريفكم فان رأيتم من لا يغشى مجالس الغناء ، فليس للتحريم ، ولكن زهدا فى الدنيا ، لان الغناء من اكبر اللذات وهو أَسَرُّ للنفوس من جميع المسرات !..

وصمت الشيخ لحظة كأنه يستجمع بقية حججه فى اباحة الغناء ثم قال

ـ ألا ترون الغناء يحيى القلب ، ويزيد فى العقل ، ويبهج النفس ، ويفسح فى الرأى ، ويتيسر به العسير ، وتفتح به الجيوش ، ويذلل به الجبارون حتى يمتهنوا انفسهم عند استماعه ، ويبرىء المريض !.. ويزيد اهل الثروة غنى واهل الفقر قناعة ورضا باستماعه .. من تمسك به كان عالما ، ومن فارقه كان جاهلا ، فأما من مات قلبه ، وذهب عقله وبصره ، فانه يوجب تركه ، ويزعم تحريمه !..

فلم يخالف الشيخ احد من الحضور فيما وصف به الغناء ، ولا انكروا عليه شيئا من قوله ، وعاد المخطىء منهم على نفسه فأصلح خطأه ، واقر بالحق !

عندئذ قال لى الشيخ :

ـ ياجميلة اوعيت ماقلت ، ووقع من نفسك ماذكرت عن الغناء ؟!

قلت :

ـ أجل .. اعزك الله ! .. وانا استغفر الله ولا انقطع عن الغناء ابدا .. واتعلق برقبتك واقول هذا الشيخ اقنعنى به !..

قال الشيخ باسما :

ـ فاختمى اذن مجلسنا ، وفرقى جماعتنا بلحن من بدائعك !..

فأمسكت بالعود وضربت وغنيت :

أفى رسم دار دمعك المترقرق
سفاها وماستنطاق ماليس ينطق
فأحسن شىء كان اول ليلنا
وآخره حزن اذا نتفرق

فصاح الشيخ وقد تملكه الطرب :

ـ حسن والله !.. أمثل هذا يتركه الناس ولا يسمعونه ؟! .. لا والله ، ولا كرامة لمن خالف الحق !..

فلما همّ الشيخ والناس بالانصراف ، قال

ـ الحمد لله الذى لم يفرق جماعتنا على اليأس من الغناء ولا جحود فضيلته ، والسلام عليك ورحمة الله ياجميلة !..

قلت :

ـ وعليك السلام ياشيخنا ورحمة الله وبركاته !..

● **اليوم الثالث** :

جلست اليوم ولبست برنسا طويلا ، وألبست جوارى منزلى برانس اقل طولا وجاء المطربون وعلى رأسهم ابن سريج وهو قبيح الصلعة يتخذ وفرة شعر يضعها على رأسه تستر صلعته ، فأحببت ان أرى صلعته فان الناس يتحدثون بقبحها ولم أرها من قبل !.. فأعطيته برنسا ليلبسه ، ففهم ابن سريج انه لابد من خلع وفرة الشعر عن رأسه ، واني دبرت ذلك لارى صلعته ، فصاح ضاحكا :

- هذا من تدبيرك لتفضحينى ياجميلة !..

ضحكت وقلت

- هو والله كذلك فاصنع مابدا لك يابن سريج !.. فنزع وفرة الشعر عن صلعته فاذا هى أقبح صلعة رأيتها ، فتضاحكت الجوارى ، فزعقت فيهن كأننى غاضبة :

- والله لو طار رأسه كله ولم يبق فيه الا حلقه وحنجرته يغنى بهما لكان فيهما مايفضل به جميع الناس !..

ثم قمت وقد مسنى طائف من المرح والطرب فرقصت وضربت بالعود وعلى رأسى البرنس ، فقام ابن سريج وقد غطى رأسه بالبرنس ، وقام معبد والغريض وابن عائشة ومالك ، وفى يد كل منهم عوده يضرب به على ضربى ويرقص مثل رقصى ..

فلما استوفينا من ذلك حظا ، ضربت وضربوا وغنيت وغنوا معى

إنـــى اقـــول مقالـة بتجـارب
حـقـــا ولــم يخبـرك مـثـل مجـرب
صاف الكريم وكن لعرضك صائنا
وعـــن الـلـئـيـم وفعلـه فَتَـنكَّبِ

فلما فرغنا من الغناء ، دعوت بوفرة شعر رائعة مصنوعة من الشعور الرومية الحمراء ، فنزعت البرنس ووضعت وفرة الشعر على رأسى فوق شعرى ، ودعوت لابن سريج بوفرة شعر صفراء انتقاها فصار بها كأنه رومى احول ، فان ابن سريج ، الى صلعه القبيح ، من أقبح الناس منظر عينين ، وقد جعل له الحول عينا تنظر الى اليمين واخرى الى الشمال !..

انتقى كل مغن ما احب من وفرات الشعر فوضعها على رأسه ، ثم قمنا نضرب بالعيدان ونتمشى مشية المغنين الحجازيين ، وغنيت وغنوا بغنائى صوتا واحدا

يمشين مشـى قطـا البطـاح تأودا
قــب البطــون رواجـــح الاكـفـــال

حتى نال منا التعب والطرب ، فنعرت ، ونعر القوم طربا وتعبا ، ثم جلست وجلسوا ، وخلعوا ثيابهم ووفرات الشعر ، ورجعوا الى زيهم ، ثم انصرفوا فكان ذلك يوما لم ار مثله حلاوة وطيبا !..

يوميات جميلة

زينة الجوارى



● **اليوم الاول** :

هذا يوم جعلته لاستقبال زوارى من كبراء الناس واشرافهم .. ولابد لهم ولى من معاقرة الغناء فى هذا اليوم !.. اغنيهم انا ثم تغنيهم الجوارى اللاتى اشتريتهن وربيتهن وعلمتهن الغناء ، وخرَّجتهن فى هذه الصناعة احسن تخريج !.. وانا الان ـ بحمد الله ـ رأس هذه الصناعة الجميلة ، واستاذة كل محسن ومحسنة فيها ! وقد اكثر كبار المغنين من قولهم لى « لولا انت ما كنا نحن » !..

دعوت بالجوارى فوضعت على رءوسهن شعورا مستعارة تنسدل كالعناقيد الى ما تحت خصورهن ، ووضعت فوق هذه الشعور التيجان المذهبة ، وألبستهن الثياب المصبَّغة الفاخرة ، وزينتهن بالحلى افخر زينة .. ثم قلت لنفسى لأوجهن الى الشريف عبد الله بن جعفر بن ابى طالب ، ادعوه لزيارتى حتى يرى ويسمع ، فانه راعى هذا الفن فى المدينة وهو الذى حمى اصحابه من مطاردة بعض المتعنتين من حكام بنى امية الذين يتصنعون الحفاظ ومطاردة المغنين ومصادرة آلات الغناء !..

ثم دعوت كاتبا لى فقلت له اكتب الى عبد الله بن جعفر ـ اعزه الله ـ كتابا تستعطفه ان يزورنا اليوم ..

فلما قرأت ماكتب لم يعجبنى ، فأجلسته وقلت له : لا بأس بما كتبت ، غير انى سأمليك ما فى نفسى ، ثم امليته هذا الكتاب الى عبد الله بن جعفر :

« بأبى انت وامى !.. قدرك يجل عن رسالتى ، وكرمك يحتمل زلتى ، وذنبى لاتقال عثرته ، فان صفحت فالصفح لكم معشر اهل البيت يؤثر والخير والفضل كله فيكم مدخر .. ونحن العبيد وانتم الموالى . فطوبى لمن كان لكم مقاربا ، والى وجوهكم ناظرا .. وطوبى لمن كان لكم مجاورا ، وبضيائكم مبصرا .. والويل لمن جهل قدركم ولم يعرف ما اوجبه الله على هذا الخلق لكم .. فصغيركم كبير ، بل لا صغير فيكم . وكبيركم جليل ، بل الجلالة التى وهبها الله عز وجل للخلق هى لكم ومقصورة عليكم .. وبالكتاب نسألك ، وبحق الرسول ندعوك ، ان كنت نشيطا لمجلس هيأته لك ، لايحسن الا بك ، و لا يتم الا معك ، ولا يصلح ان ينقل عن موضعه ، ولايسلك به غير طريقه »!..

فلما فرغت من املاء كتابى هذا قال لى كاتبى :

ـ هذه ياسيدتى هى البلاغة التى فاتتنى ، ومن لى ولأمثالى بها ؟!

ثم ختمت الكتاب وطويته وبعثت به رسولا الى الشريف ابن جعفر فلما عاد رسولى سألته عما رأى وسمع فقال : ان سيدنا لما قرأ الكتاب تبسم وقال : قد علمنا

ان جميلة حلفت الا تغنى الا فى منزلها ! وانا الان أقصد موضعا خارج المدينة ، فاذا عدت جعلت طريق رجوعى الى منزل جميلة ان شاء الله !

قلت :

ـ اما قال غير ذلك شيئا ؟!

أجابنى الرجل

ـ بل قال : « إننا ـ اهل البيت ـ لنعرف تعظيم جميلة ، لنا ، واكرامها لصغيرنا وكبيرنا »!..

ففرحت بما سمعت من الرجل ، وانتظرت ان يجيء ابن جعفر ولم ادخل احدا الى منزلى قبل ان يدخل .. فلما صار الى بابى دخل وبعض من كان معه وصرف بعضهم ..

واخرجت الجوارى وهنّ فى تلك الزينة ، فنظر الى ذلك الحسن البارع ، والهيئة الفائقة ، فقال لى

ـ ياجميلة لقد إوتيت خيرا كثيرا ما احسن ماصنعت !..

قلت

ـ ياسيدى ، إن الجميل للجميل يصلح ولك هيأت هذا المجلس ..

وقامت الجوارى صفين وأنا على رأسهن ، فاقسم ابن جعفر فجلست وظلت الجوارى وحدهن قياما ثم قلت له :

ـ ياسيدى ، الا اغنيك ؟!

فلما اومأ موافقا امسكت بالعود وضربت وغنيت فى مدح بنى هاشم من شعر حذافة بن غانم

بنى شيبة الحمد الذى كان وجهه
يضيء ظلام الليل كالقمر البدر
كهولهم خير الكهول ونسلهم
كنسل الملوك لا يبور ولا يحرى
ابو عتبة الملقى اليك جماله
اغر هجان اللون من نفر زهر
لساقى الحجيج ثم للخير هاشم
وعبد مناف ذلك السيد الغمر
ابوكم قصى كان يدعى مجمعا
به جمع الله القبائل من فهر

فطرب عبد الله بن جعفر طربا عظيما وقال لى :

ـ احسنت ياجميلة فيما غنيت ، واحسن حذافة بن غانم فيما نظم من الشعر ..

بالله اعيديه علينا !..

ثم قال لاصحابه وانا اتهيأ لاعادة الصوت

- الا ترون الشاعر قد تحدث عنا من لدن جدنا « قصى » الذى اجتمعت له امرة قريش الى جدنا « شيبة الحمد » عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ؟!

فلما اعدت الصوت ازداد طربا ، فاحببت ان ازيده فوق ذلك ، فدعوت لكل جارية بعود وامرتهن بالجلوس على الكراسى ، فضربن وغنيت على ضربهن هذا اللحن ، وهن يغنين معى نبرة نبرة ، حتى زلزلت اركان المنزل طربا !..

فاهتز عبد الله بن جعفر واصحابه من شدة الطرب ، وقال

- ماظننت ان مثل هذا يكون !.. وانه لممايفتن القلب ، ولذلك كرهه اناس لما علموا فيه !..

ثم دعا ببغلته فركبها منصرفا الى منزله وكنت قد اعددت له ولهم طعاما كثيرا ، فقال لاصحابه

- تخلفوا انتم للغداء !..

فتغدوا فى منزلى ثم انصرفوا مسرورين !.. فكان هذا اليوم من أعظم ايامى بركة وشرفا !..

● اليوم الثانى :

يزعم الناس ان الشاعر الاحوص شديد الاعجاب بى !..

وانا اراه لايفارقنى اذا جلست للناس .. ولا يكون الا اخر من ينصرف ، غير انى لا انكر من اخلاقه شيئا ..

وقد حضر اليوم مجلس الغناء فى منزلى ومعه غلام اشتراه منذ اسبوعين او ثلاثة ، ولم اكن رأيت هذا الغلام من قبل ، ولكنى لاحظت انشغال الجوارى بالنظر الى ناحيته ، حتى كن ينشغلن عن الغناء بالنظر اليه ، فتأملته فاذا هو جميل الوجه جدا ، فاشرت الى الاحوص ان يخرج غلامه هذا من منزلى ، فقد عم الخلل مجلسى وافسد امر الجوارى ، ولايستقيم ادامتهن النظر اليه مع السماع فى هذا المجلس العام ..

فتغافل الاحوص ، واظهر انه لم يفهم اشارتى حتى خفت عاقبة وجود الغلام فأمرت بعض من حضر باخراجه من المجلس فاخرجوه وغضب الاحوص وقام فخرج فى اثر غلامه ، ولم يقل لى شيئا !..

فشكر لى الحاضرون هذا الذى كان منى فى شأن الغلام ، وحمدوا موقفى ، وقالوا :

- هذا والله كان الظن بك ياجميلة وانت من انت دينا وحفاظا .. اكرمك الله !

قلت لهم :

ـ ان الاحوص لم يستأذن فى المجىء بغلامه هذا ولا علمت به حتى رأيته فى دارى ، وانه ليعز علىّ غضب الاحوص ، ولكن الحق اولى وكان ينبغى له الا يعرض نفسه واياى لما نكره !..

فلما تفرق اهل المجلس ، ارسلت اليه : « الذنب لك ، ونحن منه برءاء .. اذ كنت قد عرفت مذهبى ، ثم عرضتنى للذى كان ، فساءنى ذلك ولم اجد بدا من اخراج غلامك » !..

فرد قائلا « ليس ذنبه ان الجوارى قد اطلن النظر الى وجهه ، وليس ماتقولين بعذر لك ان لم تجعلى لى وله مجلسا خاصا يمحو مالحقنا من اساءة »!..
فرضيت بذلك وجاءا فأكرمتهما ، ولكنى حجبت الجوارى فلم يظهرن ولا غنين ولا سمع لهن احد حسا ، وجعلت مجلسى كله من عجائز الموالى ، وكلهن فوق السبعين من اعمارهن ثم غنيت لحنا فى شعر الاحوص يعجبه دائما ان اغنيه فيه :

وبالقفر دار مـن جميلة هيجت
سـوالف حـب فـى فؤادك مُنْصِبِ

وهذا اللحن من احسن ما اتفق لى من الصنعة فى الغناء وقد قال لى ابن محرز : انى لاغنى هذا اللحن الذى حفظته منك ياجميلة فتعجبنى نفسى ويدخلنى شىء لا اعرفه من الفخر والتيه ، فكيف اذا غنيته انت يا جميلة وهو من صنعتك ؟!

● اليوم الثالث

رأيت عمرو بن احمر الشاعر المخضرم الذى عاش فى الجاهلية ثم عاش فى الاسلام حتى ايامنا قلت له

ـ ما احسن مانظمت من الشعر ؟!

قال :

ـ شعرى فى الجهاد ، وقد قلت فى خالد بن الوليد وكنت معه فى فتح الشام نكر بخيولنا على الروم

اذا قال سيف الله كروا عليهم
كررت بقلب رابط الجأش صارم

وقلت شعرا فى عمر بن الخطاب ابتغى به وجه الله ، فانه لم يكن يملك شيئا يعطيه للشعراء ، واذا فضل من عطائه شىء رده الى بيت المال .. وقلت فى عثمان ابن عفان وعلى بن ابى طالب ..

قلت له

ـ انشدنى مارثيت به عمر بن الخطاب ..

فأنشدنى شعرا اعجبنى ، فعزمت ان اصنع فيه لحنا ، فلما صنعت اللحن رأيت

كل من يسمعه يبكى حزنا على عمر بن الخطاب وايامه التى كانت غررا فى ايام الاسلام .. وقال لى بعض اهل صناعتنا

ـ لا تغنى للناس هذا اللحن فانه يبكيهم ، وماسمعته منك الا وجدت شيئا يضغط قلبى ويحرقه ، ولا املك عينى !..

فكتمت اللحن عن الناس ، وصرت لا اغنيه الا لنفسى فى ساعات الأسى ! .. وليست بالقليلة فى حياتى التى يراها الناس حافلة بالفرح والمرح !..

● اليوم الرابع :

طرق الليلة منزلى طارق ولم يكن عندى مجلس للغناء ، وجاءتنى خادمة تقول انها نظرت من خصاص نافذة فاذا الطارق هو عبد الله بن عمرو بن عثمان العرجى حفيد امير المؤمنين عثمان بن عفان رحمه الله .. وهو شاعر اديب ظريف شجاع ، ولكنى حلفت الا اتغنى بشعره والا ادخله منزلى لكثرة عبثه وسفهه وحداثة سنه !

فلما علمت بمكانه فى هذه الساعة من الليل قلت ان له لشأنا !..

واستخبرت خبره فعلمت انه قدم المدينة هاربا من ضيعته فى « العرج » بالقرب من مدينة الطائف ، بعد ان قتل احد الموالى وهتك اهله !.. وقيل لى ان امير مكة يطلبه لمحاكمته وقد يقتله او يسجنه سجنا طويلا ..

فخرجت الى باب منزلى فقلت للعرجى :

ـ ان السادة لايردهم احد عن الابواب ، ولكن منزلى ملىء بالجوارى ولايمكن لمثلك ان يستخفى فيه ، فعليك بالشاعر الاحوص فانه لا يردك وانت من بيت عظيم الشرف

قال لى العرجى

ـ كانت بينى وبين الاحوص مشادة ، وهو مجانب لى الان ، فابعثى معى رسولا اليه ينقل اليه رأيك هذا .. فان منزله احب المنازل الى قلبى بعد منزلك ، على ماكان بينى وبينه !..

فوجهت مع العرجى الى الاحوص بعض عجائز منزلى ، فتلقاه الاحوص وانزله واكرمه واحسن جواره وستر امره .. فنظم العرجى شعرا ارسله لى وهو مستخف عن العيون ، فما قرأته ، رق قلبى له ، وقلت فى نفسى : كيف لى بالاذن له فى دخول منزلى وقد حلفت الا يدخله ، والا اغنى بشعره وان كان عندى فى الشعر اشبه الناس بعمر بن ابى ربيعه وهو من هو فى الشعر ؟!

فبينما انا ابدأ فى مثل هذا الفكر واعيد ، جاءنى من يقول : لقد وقع العرجى فى قبضة الشرطة ، وساقوه ومعه الاحوص الى الوالى ..

ثم جاء الاحوص وقد اطلقوا سراحه ، وقال لى

ـ ما اظن العرجى يخرج من هذه المحنة حيا ، فان بينه وبين ذلك الحاكم ضغنا عميقا !..

عندمـــا يطـــرب عمر بن أبى ربيعة



● **اليوم الأول :**

زارنى اليوم المطربان الكبيران « معبد » و « مالك » .. فغنى معبد وغنيت وغنى مالك .. ثم قال لى معبد على استحياء

ـ أتأذنين لى فى الغناء بشعر للأحوص قاله فيك ؟!..

قلت رافعة الرأس

ـ إن الأحوص بى معجب ، وأنا له مكرمة .. فهات !

فغنانى معبد

شَـأَتْكَ المـنازل بالأبـرق
دوارس كالعـين فـى المهـرق
لآل جمـيلة قـد أخلقـت
ومهما يـطل عهـده يخلـق
فـأن يقـل النـاس لـى عـاشق
فـأين الـذى هـو لـم يعـشق

فأحسن معبد فى غنائه غاية الإحسان ، ولكنى خجلت من غنائه هذا الغزل الذى يكشف الشاعر فيه عن حبه لى ، فقلت لمعبد وأنا بين الخجل والابتسام والطرب

ـ حسبك ياأبا عباد .. قد أحسنت ماشئت !..

ثم قلت لمالك :

ـ هات ما عندك ، ولا يكن غزلاً فينا !..

فاندفع مالك فغنى لحنا من ألحانى كان قد حفظه عنى فى شعر لجميل بثينة

ألا مـن لقلـب لا يمـل فيذهل
أفـق فالتعـزى عـن بثـينة أجمـل

فأجاد مالك الغناء ، فقلت له

ـ أحسنت والله فى غنائك ، وفى أخذك هذا اللحن عنى !..

قال معبد :

ـ إنما أنت أستاذة كل مطرب ومطربة فى المدينة .. وحسبك أنك أتممت ما كان سائب خاثر ـ رحمه الله ـ قد بدأه فى صناعة الغناء المتقن ، ولولاك لم يكن غناء ولا مغنون فى المدينة !..

فصاح مالك :

ـ ولا فى مكة !..

ضحكت وقلت لهما :

ـ ملأتمانى غروراً !. فأين أنا من فحول الغناء المتقن الذين اخترعوه اختراعا ، ولم يكن قبلهم شيء نسميه غناءً ؟!..

قال لى معبد

ـ قد سمعت الآن مالكا يغنى فى شعر جميل بثينة ، وإنك ياسيدتى قد عرفت بثينة وعرفتك بثينة ، فما تقولين عنها ؟!..

قلت :

ـ كانت بثينة صدوقة اللسان ، جميلة الوجه ، حسنة البيان ، عفيفة شريفة .. وقد قالت لى مرة : "والله ما أرادنى جميل رحمه الله ، بريبة قِط ، ولا حدثت نفسى بذلك منه" !..

ثم قالت لهما

ـ فانظرا ـ عافاكما الله ـ كيف أحب جميل صاحبته أشد الحب ، وبادلته الحب ، فما أرادها قط بريبة ، ولا حدثت هى نفسها بأمر مما تحدث به المرأة العاشقة نفسها ولو فى لحظة عابرة تستغفر الله منها .. فهذا والله هو الحب الصحيح تتعفف فيه حتى خواطر المحبين وهواجسهم وخفايا جوانحهم !..

● **اليوم الثانى**

زارنى المغنى العظيم ابن سريج ، وزعم أنه إنما جاء ليسمع منى ويأخذ عنى ، فأنزلته وأكرمته وسألته عن أخبار مكة وهو مطربها الأكبر ، فحدثنى وأضحكنى ـ وإنه لمحدث ظريف ـ حتى جاء مطرب المدينة معبد .. وكانت عندى جارية لبقة محسنة فى الصناعة ، فابتدأت أطارحها .. فقال لى ابن سريج : هَلاَّ بدأت بمطارحتنا ياسيدة المطربات ؟!.. قلت : كل إنسان فى بيته أمير ، وليس للداخل أن يتأمر عليه ولو كان أصدق أصدقائه ، فتنبه ابن سريج إلى خطئه وقال لى معتذرا :

ـ صدقت ! جعلنى الله فداءك !.. وما أدرى أيهما أحسن : أدبك أم غناؤك ؟!..

قلت :

ـ دع ذا عنك يا ابن سريج ولا تسرف فى مدحنا ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "احثوا فى وجوه المداحين التراب" !..

قال يشرح ما أراده بالثناء علينا :

ـ أنت على ما اشتهرت به من الغناء ، صوامة قوامة ، قد رضى الناس دينك ، وعرفوا ورعك ، وأنا صادق فى مدحك ، أما المراد بالمداحين فى هذا الحديث

الشريف فقوم من عادتهم الإسراف فى تملق الناس تحصيلا للمال أو الجاه !.. وأما المدح المراد به الحق فإنه خير لا يُحْثَى التراب فى وجوه أصحابه !..

فضحكت وضحك ابن سريج وقال له معبد

وددت والله لو قامت جميلة فرمتك بحثوة من تراب ، مع صدقك فيما مدحتها !.. فما هى بحاجة إلى مدحك ياابن سريج !..

ضحكنا ، ثم أخذت أغنى لحنا لى لتحفظه عنى الجارية ، فرأيتهما يفحصان الأرض بأرجلهما طربا ، ولا يستطيعان الصياح حتى لا أقطع غنائى !.. فلما أتممت اللحن قالا لى

- كأننا والله حضرنا مزامير داود !..

غنى ابن سريج ، وما أطيب وأعذب وأقوى صوت هذا المغنى ، فقلت له غير متمالكة نفسى من فرط إعجابى :

- إنك والله لبارع محسن فيما نظمت من الشعر وفيما لحنت وفيما غنيت .. وإن صوتك لمما يزيد العقل قوة ، والنفس طيبا ، والطبيعة أريحية وسهولة ، ولو كان الهواء يمسك الغناء فلا يذهب بددا ، ولا تذروه الرياح ، لكان مجلسنا هذا كالعلم الخفاق فى هذه الصناعة إلى آخر الزمان ..

● **اليوم الثالث** :

أقبل إلى المدينة من مكة عمر بن أبى ربيعة الشاعر القرشى المشهور ، فطرق منزلى ومعه الأحوص بن محمد الأنصارى وآخرون ، فأذنت لهم ورحبت بهم ، وخصصت عمر بن أبى ربيعة بحفاوة أبذلها فى العادة له ، لمكانته عندى .. فقال لى

- إنى قصدتك من مكة للسلام عليك !..

قلت له :

- أهل الفضل أنت .. جُزِيتَ خيرا !..

قال متوددا :

- وقد أحببت أن تفرغى لنا نفسك وتخلى لنا مجلسك ، ونترك الخيار لك فيما تغنين !.. فغنيتهم :

تمشى الهوينى إذا مشت فضلا
مشى النزيف المخمور فى الصُعُدِ
تظل من زور بيت جارتها
واضعة كفها على الكبد

يـامـن لقلــب متيـم سـدم

عَانٍ رهيــن مُكَـلَّمٌ كَمِـدِ

آزجــره وهــو غيـر مـزدجـر

عنهـا وطـرفـى مكحـل السهــد

فنعر الأحوص ، وقام عمر بن أبى ربيعة يريد أن ينطح الحائط برأسه من شدة الطرب ، وكأنما اعترت المنزلة زلزلة .. فلما هدأوا .. قال لى ابن أبى ربيعة

ـ لله درك ياجميلة .. لقد أعطاك الله كل مافى حلوق البشر من حلاوة ، فأنت أول الغناء وآخره !..

ثم سكتنا ساعة عن الغناء ، وأخذنا بأطراف الحديث ، حتى شعرت أنهم يشتهون أن أغنى ، فأخذت العود وغنيت

شطت سعاد وأمسى البين قد أفدا

وأورثوك سقاما يصدع الكبدا

لا أستطيع لها هجرا ولا ترة

ولا تزال أحاديثى بها جددا

فاستخف الغناء القوم ، فصفقوا وحركوا رءوسهم كأنما عقولهم طارت منها ، قال ابن أبى ربيعة

ـ نحن فداؤك من السوء ، ووقاؤك من المكروه .. ما أحسن ما غنيت ، وأجمل ما قلت !..

وحضر الغداء ، فتغدينا بأنواع الأطعمة الحارة والباردة ، والفاكهة الرطبة واليابسة ، مما ينبت فى المدينة ، ومما يجىء من الشام والعراق ومصر .. ثم دعوت بأنواع من الأشربة فقال عمر بن أبى ربيعة : "لا أشرب" !.. أما الأحوص فقال "لكننى أشرب !.. وما جزاء جميلة أن نمتنع من شرابها" .. قال عمر : "ليس ذلك كما ظننته ياأحوص" .. قلت : "من شاء أن يحملنى بنفسه ، ويخلط روحى بروحه شكرناه ، ومن أبى ذلك عذرناه ، ولم يمنعه ذلك ما يريد من الأنس بمحادثته" !.. قال عمر : "لا أكون والله أخس القوم .. فأنا سامع مطيع" !.. فشرب القوم أجمعون !.. فبينما هم فى ذلك غنيت لهم لحنا فى شعرابن أبى ربيعة

ولقد قالت لجارات لها

كالمها يلعبن فى حجرتها

خذن عنى الظل لا يتبعنى

ومضت تسعى إلى قبتها

لم تعانق رجلا فيما مضى

طفلة غيداء فى حلتها

لم يطش قط لها سهم ومن

ترمه لا ينج من رميتها

فصاح عمر بن أبى ربيعة وقد غشى على أصحابه من الطرب

ـ ويلاه ... ويلاه ... ويلاه . !

ـ فلما أتمهن ثلاثا وقد كاد يجن طربا ، عمد إلى ثوبه فشقه من أعلى إلى أسفل ، وجلس مبهورا لا يعى ما يصنع !..

ثم تمالك نفسه وقال لى معتذرا

ـ لم أملك من نفسى شيئا ، وما استطعت إلا تخريق ثيابى ، ولولا أنى صبور متجلد لأصابنى الاغماء وأخذتنى الغشية كما أخذت أصحابى هؤلاء !..

فدعوت بثياب فلبسها عمر ، وأفاق أصحابه من إغمائهم واستراحوا ساعة ثم انصرفوا ، وأنا لا أعجب لحالهم ، فطالما رأيت السامعين يشقون ثيابهم ، ويغشى عليهم ، ويضربون الجدران برءوسهم طربا !..

ولم يكد القوم ينصرفون حتى وجه عمر بن أبى ربيعة الى منزلى بعشرة آلاف درهم ، وعشرة أثواب .. وقال لرسوله الذى حمل هذه الهدية : قل لجميلة إن عمرا عاد إلى مكة ولم يمر بدارك لأنه لا يستطيع وداعك !..

● **اليوم الرابع** :

خرجت أحج بيت الله فى مكة .. فإذا جميع المغنين والمغنيات يمشون فى ركابى ، ومعهم جماعة من السادة والشعراء ، ورأيت تحت هودجى أستاذنا طويسا ومعه جماعة من مشيخة صناعة الغناء بالمدينة على رأسهم معبد ومالك وابن عائشة وابن طنبورة وبديح المليح ونافع الخير .. أما المغنيات فكان على رأسهن نابغة الغناء عزة الميلاء وسلامة القس وحبابة وخليدة وعقيلة وبلبلة ولذة العيش وغيرهن .. ومن الشعراء الأحوص وكثير عزة ونُصَيْب ، ومعهم جماعة من كبراء المدينة ، وقيل لى إن من لحق بركبى من المغنيات زدن على خمسين مغنية قصدن جميعا الحج معى ، وأعطاهن سادتهن النفقات وحملوهن على ابل فى الهوادج والقباب !.. وما أظرف أهل المدينة وأكرمهم ..

قاربنا مكة فتلقانا شيخ المطربين سعيد بن مسجح وابن سريج والغريض وابن محرز ومن لا أحصيهم من المغنين والمغنيات .. أما الشعراء فكان فى مقدمتهم عمر بن أبى ربيعة وعبد الله العرجى حفيد عثمان بن عفان ، وجماعة من الأشراف .. فدخلت مكة وحولى هؤلاء جميعا ، وخرج كثير من أهل مكة ينظرون إلى جمعنا هذا وحسن هيئته !..

فلما قضيت مناسك الحج .. سألنى بعض المكيين أن أجعل لهم مجلسا ، فسألتهم : للغناء أم للحديث ؟!.. قالوا جميعا !..

فأبيت أن أغنى ، وقلت لهم :

ـ إن أردتم سماعى ، فلا يكون فى موسم الحج !..

فصاح عمر بن أبى ربيعة فى الناس

ـ أقسمت على من كان فى قلبه حب لاستماع جميلة إلا خرج معها إلى المدينة ، فإنى خارج معها !..

فخرج معى إلى المدينة جمع كبير انضم إلى من كانوا قد صحبونى من المدينة إلى مكة .. وتلقانا أهل المدينة كبارا وصغارا !..

فلما مضت بعد عودتى أيام جلست للغناء ، فغصت دارى بالناس ، وغنيتهم بلحن لى فى شعر عمر بن أبى ربيعة ، فكلهم طرب للغناء ، وضج القوم من حسن ما سمعوا ، وقالوا ما سمعنا غناءً قط أحسن من غناء جميلة فى هذا اليوم .. **أما عمر بن أبى ربيعة فذرفت عيناه حتى جرى الدمع على لحيته وثيابه !..**

يوميات الغريض :

قتيـــل الجـــن



سهرت الليلة وحدى !.. لم أجد صديقاً لى يسامرنى بعد ما رقد السامر .. تذكرت أستاذى فى هذه الصناعة ، صناعة الغناء ، مطرب الحجاز الأول ، عبيد بن سريج .. فقلت فى نفسى أطرق بابه فى هذه الساعة من الليل أشكو إليه أرقى لعله يساهرنى ويحادثنى ، وربما هزته أريحيته فتغنى لى وأسمعنى ما أشتهى من حلاوة صوته وبراعة لحنه !

قال لى ابن سريج وقد صرت بين يديه فى داره

ـ هيه ياغريض !.. افتتن بك الناس فى مكة لأنك طرى الوجه ، غض الشباب ، حسن المنظر ، أبيض ، لين الصوت ، شجى النبرات حين تنوح أو تغنى .. فماذا أبقيت لى وأنا شيخك ومعلمك !.. منى تعلمت صناعة النياحة وصناعة الغناء فبرعت وكثر فى يدك المال ؟!

قلت له مسترضياً مادحا

ـ والله مازدت على أن أكون تلميذك وخريجك ، ولولاك لكنت حتى اليوم خياطا فقيرا أخيط ثياب الناس وأشقى بتلك الحرفة الصغيرة .. وأنت صاحب الألحان المرقصات والمشجيات والمبكيات ، لايبلغ أحد فى هذا الفن أن يكون من بعض خدمك !..

تبسم ابن سريج ، راضيا عنى ، وقال :

ـ دعانى بعض أصحاب فقيه مكة وعالمها الأكبر عطاء بن أبى رباح أن أحضر مساء غد وليمة فى داره ، مع جمع من أهل مكة ، وعلمت أنهم دعوك أيضا ، ولابد لى ولك من الغناء فى هذا الحفل ، ابتهاجا بختان أصغر أولاد الشيخ !

ـ نعـم !.. بعض أصحاب الشيخ استأذنوه فى دعوتنا ، فأذن بالدعوة كما أذن بالغناء !..

ـ وتظنه يسمع غناءنا ؟!..

ـ ألم يسمعك مرة تتغنى بشعر جرير واستحسن غناءك ، ومضى يترنم بشعر جرير الذى غنيته ؟!

ـ لقد كان ذلك يوما مشهوداً !..

انصرفت من دار ابن سريج أفكر فيه وفى غنائه الذى فتن أهل مكة حتى قال له الشيخ عطاء بن أبى رباح .. « يافتان !.. أما آن لك أن تكف عن فتنة الناس ؟!» فلما غناه ابن سريج لحنا فى شعر جرير ، كف الشيخ بعد ذلك عن التعرض له ، وصار يستمع إليه أحيانا ..

وتذكرت كيف أرسلنى سادتى منذ سنين الى ابن سريج ليعلمنى صناعة النياحة ، فان للنوح على الموتى فناً خاصا ليس فى الدنيا من يتقنه كابن سريج وقد أبكى أهل مكة حين ورد اليهم الخبر بما فعله مسلم بن عقبة من فتك وهتك بالمدينة المنورة حين أباحها لجنده بأمر الخليفة يزيد بن معاوية ثلاثة أيام ، فصعد ابن سريج على جبل أبى قبيس وناح

يا عين جودى بالدموع السفاح
وابكى على قتلى قريش البطاح

و « قريش البطاح » هم أكرم أهل مكة ، ومنهم بنو هاشم وبنو أمية .. ولم يصب أحد من هؤلاء فى مذبحة المدينة المنورة ، ولكن ابن سريج ذكر « قريش البطاح » لأن منها بطونا أخرى فتك بها جنود يزيد بن معاوية مع من فتكوا بهم من الأنصار والمهاجرين وأولادهم ، ذكورا واناثا !..

ثم أرسلت سكينة بنت الحسين من المدينة تطلب الى ابن سريج أن يصنع نوحا فى هذا البيت

يا أرض ويحك أكرمى أمواتى
فلقد ظفرت بسادتى وحماتى

وصنع ابن سريج فى هذا البيت نوحا عجيبا ، يبكى فيه شهداء أهل بيت على ابن أبى طالب أحر بكاء .. فقدمه ذلك عند أهل الحرمين على جميع ناحة مكة والمدينة وسائر الحجاز وبلاد المسلمين ..

ولما ذهبت اليه أتعلم « النياحة » وجدنى أتعلم بسرعة واتقان ، وفى صوتى من الشجا مايبكى الناس ، على مافيه من حلاوة وطلاوة ، فنحانى ابن سريج عنه وطردنى وتجنى علىّ كثيرا ، حسدا منه لى ، وأنا تلميذ بين يديه ، وليس صوتى أحسن من صوته ، ولا عندى من أسرار هذه الصناعة الا ما تعلمته منه !..

راجعته مستعطفا فقال لى محتقرا

ـ ما اسمك ؟!.. وما كنيتك ؟!.. وما أصلك ؟!..

قلت متعجبا

ـ اسمى وكنيتى وأصلى لا تغيب عنك ، فأنا عبدالملك ، وكنيتى ابويزيد ، وأصلى من رقيق البربر ، وأبى وأمى مسكينان من الموالى فى مكة .. وقد ماتا !..

قال :

ـ ولكنك جميل وضىء طرى ، فلهذا سموك الغريض .. وأنت تضرب بالعود ، وتنقر بالدف ، وتوقع بالقضيب ، وتغالى فى تصنيع نفسك وتبريقها .. وقد اشتهى الناس نبرات الشجا فى صوتك ، وقمت بدلا منى تنوح لهم .. فوالله لأتركن النياحة ، ولأقتصرن على الغناء وحده ، ولأتركنك تنوح على أمك وأبيك !..

ومنذ ذلك اليوم ترك ابن سريج النياحة وتركتها أنا أيضا وصرت مثله مغنيا ، فكاد ينشق غيظا ، مع أنه لبث فى موضعه سيدا لفن الغناء ، وكنت ومازلت تابعا له ، وان لم يكن أحد غيره أحسن منى فى الغناء !..

● اليـوم الثانـى

زارنى ابن سريج فى دارى قبل طلوع الشمس ، قال لى

- لعلك تراجعت عن موعدنا الليلة فى ختان ابن الفقيه عطاء بن أبى رباح ، حتى لاتغنى معى فى حفل واحد !..

قلت أنفى عنه الشك فى أمرى :

- لا والله .. بل أنتظر الموعد لأتعلم منك !... فهل لك أن تبقى عندى هنيهة أسمعك لحنا لى فى شعر لعمر بن أبى ربيعة ؟!..

ثم أخذت العود وغنيت

يـا أبــا الحـــارث قـلـبـــى طـائــر
فـاســتـمــع قــول رشـــيـد مـؤتـمـــن
لـيـــس حـــب فـــوق مـــا أحـبـبـتـكـم
غـــيـر أن اقـتـــل نـفـســـى أو أجـــن
حـســـن الـوجـــه نـقـــى لـونـــه
طـيـب الـنـشـــر لـذيـــذ الـمـحـتـضـــن

فطرب ابن سريج وقال لى

- كأنك لم تسمع لحنى فى هذا الشعر ؟!..

ثم اندفع فغنى لحنه ، فتضاءل لحنى بإزائه ، حتى وددت أنى لم أصنعه !..

ثم نهض ابن سريج وهو يذكرنى بموعدنا عند الفقيه الجليل !..

ولم يكد يخرج من دارى حتى سمعت طارقا على بابى ، واذا بمعبد المغنى المشهور فى المدينة المنورة جاء يزورنى فرحبت به فقال :

- دعنا من الترحيب بالكلام المزوق ، فإنى ماجئت من المدينة الى مكة الا طلبا لسماع لحنك فى شعر جميل بثينة :

ومـا أنــس م الأشـياء لا أنـس قـولـهـا
وقـد قـربـت نـضـوى أمـصـــر تـريـــد
يقـولـــون جـاهـــد يـاجـمـيـل بـغــزوة
وأى جـهـــاد غـــيـرهـــن أريـــد ؟!
لـكـــل حـديـــث عـــنـدهـن بـشــاشـــة
وكـــل قـتـيـــل بـيـنـهـــن شـــهـيـد

فكاد معبد يطير طربا مما أسمعته ، مع أن له لحنا فى هذا الشعر يعجبنى ويعجب الناس ، وهو أعظم المطربين منزلة عندى بعد ابن سريج .. وقد تلقى فن الغناء من مطربى المدينة الأوائل .. طويس ونشيط الفارسى وسائب خاثر ، وجميلة سيدة المطربات والمطربين !..

ولقد سمعته يغنى ويضرب بالعود ، على استواء عجيب فى الغناء ، واستقامة فى العزف لايلحق بها ضارب عود ، ولامغن على عود !.. وهو راوية للغناء متين الرواية ، وصناعتنا هذه محتاجه الى دعم أصولها ، وهذه الأصول محتاجة الى الرواية الصحيحة المتقنة .. والرواية المتقنة الصحيحة لايقوى عليها الا أمثال معبد !..

قال لى معبد وهو يهم بالانصراف

ـ لولا ملالة الحديث ، وثقل اطالة الجلوس لاستكثرت منك ، فانك عندى ذو مكانة جليلة !.. وقد سررتنى بغنائك وفطنتك وقيافتك !

● اليوم الثالث :

غنيت الليلة الماضية مع ابن سريج فى دار كبير أهل العلم بمكة عطاء بن أبى رباح !..

كانت الوليمة التى أولمها بمناسبة ختان ابنه طيبة وان لم تكن كبيرة ، ولكن الحضور كانوا كثيرين ، ولم يكن همهم الطعام .. بل السماع ، وقد علموا أنى وابن سريج حاضران !..

بدأ ابن سريج يغنى ، وكنت أظن أن ابن ابى عطاء سينتحى من الدار ناحية حتى لايستمع الى الغناء ، ولكنه ثبت فى مجلسه ، ونقر ابن سريج بالدفء وتغنى بشعر كثير عزة .

أمنقطع ياعز ما كان بيننا
وشاجرتى ياعز فيك الشواجر
اذا قيل هذا بيت عزة قادنى
إليه الهوى واستعجلتنى البوادر
أصد وبى مثل الجنون لكى يرى
رواة الخنا أنى لبيتك هاجر

فأصغى القوم بآذانهم ، وشخصت اليه أعينهم ، وطالت أعناقهم ، وأصابتهم غشية من الطرب

ثم قمت أنا فغنيتهم فى شعر عمر بن أبى ربيعة

فقالت وأرخت جانب الستر انما
معى فتحدث غير ذى رقبة أهلى

فقـلـت لـهـا مابـى لهـم مـن تـرقـــب
ولــكـــن ســـرى لـيـــس يحملـه مثـلـى

فوالله ما رأيت القوم تحركوا ولانطقوا ، فقد شغلهم الاستماع لى عن كل مافى الدنيا !..

ومضينا أغنى .. ثم يغنى .. حتى قيل لنا : غنيا معا !..
فاتفقنا أن نغنى هذا اللحن وهو لابن سريج

خـلـيـلـى عـــوجـــا نســـأل الـيـــوم مـنـزلا
أبـــى بـالـبـراق الـعـفـــر أن يـتـحـــولا
أرادت فلـــم تَسْـطـع كـلامـــا فـــأومـــأت
إلـيـنـا ولـم تـأمـن رســولا فـترســـلا
بِـأَنْ : بِـتْ عسـى أن يسـتر الليل مجلسـا
لـنـــا أو تـنـــام الـعـين عـنـــا فتـقـبـلا

غنينا هذا اللحن معا ، فخيل الينا نحن والمستمعين أن الأرض تميد حتى تبينت أثر غنائنا فى الفقيه عطاء بن أبى رباح .. وماسمع السامعون شيئا أحسن من ذلك !

● اليـوم الرابـع :

آه .. ثم آه من الأيام حين يراها المرء تنقضى وتمر مر السحاب !..
ذهبت أيام الصبا وأيام الشباب .. وجاءت الشيخوخة بصفرة ألوانها !..
غضب حاكم جديد جاء يحكم مكة فأمر باخراجى منها الى اليمن فخرجت !
ورأى أعراب اليمن العود فى يدى فظنوه شيئا يستند اليه راكب البعير حين يميل على مؤخرة الرحل أو مقدمته !... وطلب بعضهم منى أن أبيعه هذا العود ليضعه فى رحل ناقته !.. ولكنى لست تاركا هذا المكان بقية حياتى .. فقد مللت كل شىء وزهدت فى الدنيا ..
مر بى بعض المسافرين من أهل مكة فلما رأيتهم بكيت ، فسألونى ..
ـ مايبكيك ياغريض وأنت من كنت تضحكنا جميعا بطرائفك وحلاوة لسانك ؟!
قلـت لهـم :
ـ بأبى أنتم وأمى !.. كيف يطيب لى أن أعيش بين قوم لم يروا العود قط ؟!..
أما مكة ، فلن أعود إليها بعد أن مات أكثر من أحبهم فيها ..
ثم اندفعت أغنى ..

جـرى دمعـــى فـهـيـج لـــى شـــجـــونـــا
فـقـلـبـــى يـسـتـجـــن بـــه جـنـونـــا

مضى القوم الى بلدهم ورقدت مريضا باكيا ولاأرانى الا سأموت ..!..

فلله أيام بمكة كنت فيها أمسك بالدف فأمشى وأنا أنقر عليه مشية لايرى الناس أحسن منها ، ثم أغنى مقبلا ومدبرا حتى أخر صريعا فيظن الناس أن الجن قد لوت عنقى غيرة من حسن غنائى ولطف مشيتى على نقر الدف !..

وزعم الناس أن الجن نهتنى أن أغنى والا قتلتنى ، ولكنى وان كنت اليوم مريضا غريبا بائسا ، لن أنتهى عن الغناء الى النهاية .. ولتقتلنى الجن !..

أزهد الناس .. وأطرب الناس



فى المدينة المنورة نبغت فى الغناء بعد أن تعلمت أصوله فى مكة ، وأخذته عن معبد وابن عائشة وجميلة سيدة المغنيات ، وسمانى الناس "سلامة القس" .. لأن رجلا من صلحاء مكة سمع يوما غنائى ، فشغفته حبا ، وشهر بحبى فى القريتين العظيمتين : مكة والمدينة ، فقال الناس القس أحب سلامة !.. ثم صرت أدعى بينهم "سلامة القس" .. نسبة إلى هذا الرجل التقى الورع الذى كانوا يلقبونه "القس" لعبادته وصلاحه !..

سيدى الذى يملكنى فى المدينة .. اسمه مصعب بن سهيل الزهرى ، ولى أخت يملكها أيضا اسمها "ريا" وكذب الشاعر ابن قيس الرقيات حين قال

لقد فتنت ريا وسلامة القسا فلم تتركا للقس عقلا ولا نفسا
فتاتان أمَّا منهما فشبيهة الهلال ، وأخرى تشبه الشمسا

كذب ابن قيس الرقيات فى البيت الأول ، وأراد التشنيع على الرجل الصالح عبد الرحمن القس ، الذى يحبنى أنا وحدى !.. وصدق ابن قيس الرقيات فيما شبهنى به وأختى فى البيت الثانى !..

وكانت لنا بمكة زميلة فى صناعة الغناء اسمها "حبابة" .. مفرطة الجمال ، لكنها ليست فائقة الصوت ولا الصنعة ، وقد انتقلت مثلى إلى المدينة ، ونجتمع من حين إلى حين فى دار أستاذتنا "جميلة" التى امتلكت فن الغناء من أطرافه ، وتفوقت فيه على ابن سريج وأمثاله من فحول المطربين ، ورووت أغانى القيان القدائم اللاتى كن يغنين قبل أن ينضج الغناء المتقن على عود نشيط وزميله سائب خاثر وابن مسجح ، وتلك الطبقة التى كانت أول من غنى على العود الفارسى غناءً عربيا .. وعلى أيديهم تم تعريب أوتار العود ، وإقامة الأصوات وأجناسها عليه باللسان العربى والذوق العربى ..

زميلتى حبابة مجتهدة حقا ، ولكنها لا تتعلم بسرعة ومهارة كما أتعلم أنا وأختى ، ويريد الرجل الذى يملك حبابة أن تتقن الغناء ليبيعها بمال عظيم !.. وأستاذتنا جميلة تقول لها : ياحبابة .. خذى إحكام ما أطارحك به من ألحان ، من

أختك سلامة ، ولن تزالى بخير ياحبابة مابقيت لك سلامة وكان أمركما مؤتلفا

حبابة تسمع كلام أستاذتنا وتطيع ، وتريد أن تتعلم ، ولها طموح إلى العيش فى القصور العالية فى دمشق ، مع أنها تعيش فى المدينة حياة المترفات !..

وتقول لى حبابة أحيانا : أرأيت ياسلامة .. إن شاهدنى الخليفة أو شاهدك ، أكان يفتتن بى وبك ويشترينا ؟!..

وأقول لها دائما : نعم !.. وأى رجل يملك ثمننا ولا يدفعه إلى سادتنا عن طيب خاطر ليحوز هذا الجمال وهذا الغناء ؟!..

ولكن العهد الآن هو عهد عمر ابن عبد العزيز ، الخليفة الذى يقال إن فيه من عمر بن الخطاب مشابه كثيرة ، وهو حفيده من جهة الأم ، وعلى نهجه فى إقامة شرع الله فى الرعية ، وقد غمر الدنيا بعدله وصلاحه ..

● اليوم الثانى :

يزعم بعض من يجهل الحقيقة أن عبد الرحمن القس كان متبذلا فى حبى ، وهو الذى كانوا يشبهونه فى مكة بالفقيه العظيم عطاء بن أبى رباح !..

ووالله ماتبذل عبد الرحمن يوما فى حبى ، ولا نسى أن الله تعالى مطلع عليه !.. وماسمع غنائى ـ أول مرة ـ إلا مصادفة وعلى غير تعمد منه ، فإنه مر بعد صلاة العشاء بدار سيدى ـ وكنا بمكة ـ فسمع غنائى ينبعث من النوافذ المفتوحة ، وكنا فى الصيف .. فوقف لحظة يسمع على غير ريبة ، فرآه مولاى فدعاه أن يدخل ليسمعنى ، فأبى عليه ، فقال له : إنى أقعدك فى مكان تسمع منها ولا تراها فقال : أما هذا فنعم ، فأدخله الدار وأجلسه وسمعنى ، فلما فرغت من غنائى غمزنى مولاى فخرجت عليهما من وراء الستار كأننى البدر فى تمامه ، فرآنى القس فعلق قلبه بى ، وطفق يسبح ويذكر الله ، ويحاول أن يهرب مما علق بقلبه منى !..

ثم صار يتردد علينا ، فيقعدنى سيدى بين يديه فأغنى ، حتى شغف بى وشغفت به ، وعرف ذلك أهل مكة .. وقالوا لسيدى الذى كان يملكنى هناك قبل أن أصير جارية لسهيل بن عبد الرحمن فى المدينة :

ـ أيها الرجل قد أفسدت الرجل الصالح بغناء جاريتك !..

قال لهم :

ـ لا .. والله !.. ولكنى أصلحت جاريتى !..

وحملنى شغفى به ، وقد غنيته يوما وخلا لنا المكان ، أن أقول له :

ـ أنا والله أحبك !..

قال وقد علت وجهه حمرة الحياء :

ـ وأنا والله أحبك !..

قلت أغريه

ـ وأحب أن أضع فمى على فمك !..

قال وقد اضطرب وتحير :

ـ وأنا والله أحب ذاك !..

قلت أستحثه على الخطوة الأخيرة :

ـ فما يمنعك .. فوالله إن المكان لخال !..

أطرق القس شيئا ثم رفع رأسه والدمع فى عينيه وقال لى :

ـ يمنعنى منه قول الله عز وجل : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » .. وأنا أكره أن تحول مودتى لك عداوة يوم القيامة ..

ثم خرج من عندى وهو يبكى ، فما عاد بعد ذلك ، وانهمك فى النسك ، وقال

قد كنت أعذل فى السفاهة أهلها
فـاعجب لما تأتى بـه الأيام
فاليـوم أعـذرهـم واعلـم انمـا
سبل الضلالة والهدى أقسام

وهو الذى كان أيام حبه لى ، يصف صوتى فيقول :

ألم ترها لا يبعد الله دارها
إذا رجّعت فى صوتها كيف تصنع
تمد نظـام القـول ثم ترده
إلى صلصـل فى صـوتها يترجّع

ويقول :

سلاّم هل لى منكم ناصُر
ام هـل لقلبـى عنكـم زاجـر
قد سمع الناس بوجدى بكم
فمنهـم الـلائـم والعـاذر

فهذه والله حكايتى مع عبد الرحمن القس ، ومارأيته منذ فارقت مكة وأقمت فى المدينة !..

● اليوم الثالث :

قدم إلى المدينة حاكم جديد ، فأمر بإخراج المغنين والمغنيات من المدينة بعد أيام حددها لخروجهم .. وكان الرجل الصالح ابن أبى عتيق الذى يحب سماعى ،

غائبا عن المدينة ، فعاد فى آخر ليلة من ليالى الأجل الذى ضربه الوالى لخروج المغنين والمغنيات ، فمر بدارنا ، فسلم علينا فقلت له

- ياسيدى ما أغفلك عن أمرنا !..

وأخبرته الخبر .. فخرج فاستأذن على الوالى وقال له :

- جزاك الله خيرا على مافعلت من إخراج أهل الغناء والفساد ، وأرجو ألا تكون عملت عملا هو خير لك من ذلك !..

قالى الوالى

- أصحابك الصلحاء أشاروا علىّ أن أفعل وقد فعلت ..

قال ابن أبى عتيق :

- قد أصبت - أصلحك الله - ولكن ماتقول فى جارية هذه صناعتها يكرهها عليها ذووها إكراها ، فتركت الغناء وأقبلت على الصلاة والصوم والخير ؟! ..

- فإنى لا أخرجها من المدينة !..

- الخير - أصلحك الله - أن تأتيك هذه الجارية فتسمع من كلامها وتنظر إليها فإنها محدثة لبقة ذات علم ..

ذهبت إلى الوالى فحدثته ، فوجدنى من أعلم الناس بالناس - كما قال لى - لأنى حدثته عن آبائه وأحوالهم وأمجادهم ، ففكه لذلك وطرب !..

وكان ابن أبى عتيق حاضرا فقال لى :

- اقرئى للأمير قرآنا ..

فقرأت له ، فقال الأمير : هذه أصح قراءة وأجملها ، وقال لى ابن أبى عتيق :

فأسمعى الأمير - أصلحه الله - شيئا من الحداء ..

فحدوت له حداءً لا يحسنه الحداة المحترفون وراء الابل فى صحراء نجد ، حتى كثر تعجب الوالى ، فقال له ابن أبى عتيق من فوره :

- فكيف لو سمعتها أيها الأمير - أعزك الله - فى صناعتها .. الغناء ؟!..

فتردد الأمير قليلا ثم أمرنى فغنيت ، فأحسنت ماشئت ، وجئت فى غنائى بما يشبه السحر ، حتى نهض الوالى من سريره فقعد على البساط بين يدىّ ، وصاح وقد استبد به الطرب

- لا والله يا ابن أبى عتيق .. مامثل هذه تخرج من المدينة أبدا !..

فلما هدأت سورة الطرب فى جوانح الأمير قال له الشيخ :

- أيها الأمير .. لو تركت سلامة وحدها فى المدينة ، لقال الناس : ترك الأمير سلامة وحدها وأخرج غيرها !.. ثم لا يدعك الناس من اقاويلهم الكاذبة !.. فما أنت صانع أيها الأمير أصلحك الله ؟!..

قال الأمير فى حسم :
- إذن لا يخرج من المدينة أحد من المغنين والمغنيات مادامت فيها سلامة ! ..

● اليوم الرابع :

مات عمر بن عبد العزيز .. أحزننا موته ! تولى الخلافة يزيد بن عبد الملك ، فكان أول ماقاله : « مايقر عينى ما أوتيت من الملك حتى أشترى سلامة وحبابة » !..

وماهى إلا مدة يسيرة حتى قدم رسل يزيد بن عبد الملك إلى المدينة ، فاشتروا حبابة ، ثم اشترونى ، وبلغ ثمنى عشرين ألف دينار قبضها ابن سهيل مغتبطا بالثروة التى هبطت عليه ، ولكنه قال لى :

- والله ماتقر عينى بهذا المال كما تقر برؤيتك وسماعك !.. ولكن لابد من إجابة يزيد بن عبد الملك إلى ما أراد !..

خرجت من المدينة فشيعنى خلق كثير ، فوقفت بينهم أودعهم ومعى العود ، فغنيتهم

فارقونى وقد علمت يقينا
مـا لمـن ذاق ميتـة من إيـاب

ثم ركبت متأهبة للرحيل ، فانتحب الناس بالبكاء ، وتحركت الركاب بى وبحبابة ، فى اتجاه دمشق !..

فلما دخلنا إلى يزيد بن عبد الملك فى قصره ، أشرق وجهه بالنور ، وقال وهو يفتح ذراعيه لحبابة ولى

فألقت عصاها واستقر بها النوى
كما قر عينا بالإياب المسافر

ثم قال
- ماشاء بعدُ من أمر الدنيا فليفتنى ، فقد ملكت سلامة جارية ابن سهيل الزهرى ، وحبابة جارية آل لاحق !..

وخيل إلىّ أن الزهريين واللاحقيين قد أصبحوا أعظم الناس .. ألم يذكرهم الخليفة وكأنه أخذنا منهم سبايا فى حرب طاحنة !..

لم يتركنا يزيد للراحة إلا قليلا ، ثم أمرنى فغنيت فى شعر عبد الرحمن القس :

الا قل لهذا القلب هل أنت مبصر
وهل أنت عن سلامة اليوم مقصر

ألاليت أنى حين صار بها النوى
جليس لسلمى حيثما عج مزهر
إذا أخذت فى الصوت كاد جليسها
يطير اليها قلبه حين ينظر
كأن حماما مستهاما مؤديا
إذا نطقت من صدرها يتغشمر

فطرب يزيد طربا شديدا ، ثم تفكر لحظة وسألنى :

- ياحبيبتى .. من قائل هذا الشعر ؟!

فقصصت عليه القصة ، فرق للقس ولى ، وقال :

- أحسن الرجل الصالح ، وأحسنت ياسلامة !..

● اليوم الخامس :

فى الأيام الأولى لنزولنا أنا وحبابة فى قصر يزيد بن عبد الملك كانت حبابة تنظر لى بعين الإجلال والتعظيم لما سلف لى من الفضل عليها فى تعليمها ..

ولكن يزيد بن عبد الملك مال اليها وخصها بحب مفرط ، وتدله بها حتى عجبت هى نفسها من تدله الخليفة بها وهى جارية ملك يمينه .. ثم تغيرت معاملتها لى حين رأت تفضيل الخليفة إياها لأنها مفرطة الجمال ، وأما أنا فمغنية بارعة ولكنى لست فى مثل جمال وجهها !..

قلت لحبابة

- ويحك ياحبابة .. أين تأديب الغناء وأين حق التعليم ؟!.. أنسيت قول جميلة لك يوما وهى تطارحنا الألحان : خذى إحكام ما أطارحك به من سلامة ، ولن تزالى بخير مابقيت لك وكان أمركما مؤتلفا ..

قالت لى حبابة :

- صدقت ياخليلتى .. والله لا عدت إلى شىء تكرهينه أبدا !..

ماتت حبابة إذ شرقت بحبة عنب رماها يزيد بن عبد الملك فى فمها مداعبا وهو يؤاكلها ..

حزن يزيد عليها ورفض دفنها ثلاثة أيام بعد موتها حتى أنتنت ، وأقنعوه بدفنها .. فلما مضت أيام اشتاق إليها فنبش قبرها وأخرجها وقد تغيرت جثتها وتشوهت ، فقيل له

- ألا ترى مافعل الموت بها ؟!..

قال فى جنون

ـ مارأيتها قط أجمل مما أراها الآن !..

فأخذوها منه قسرا وأعادوا دفنها .. ومضوا به إلى قصره ..

واليوم فارقنا يزيد بن عبد الملك !.. سمع الناس صوتى وأنا أنوح عليه .. ثم صحت : وا أمير المؤمنين !.. فعرف الناس أنه مات .. وجاء ولى عهده هشام بن عبد الملك الذى أصبح خليفة فسكّتنى وأمرنى بالاحتشام فامتثلت لأمره ..

وهشام لا يبالى بغنائى ولا يهمه أمر الغناء كله فى شىء .. ولا أدرى ماتأتى به الأيام !..

يوميات حبابة

للحب وقت وللموت وقت



● اليــوم الأول

أول من مَلَكَنِي وأنا جارية صغيرة ناشئة فى صناعة الغناء ، يدعى « ابن مينا » على يديه كانت بداية تخرجي فى الغناء وتأدبى وتعلمى ، ثم اشترانى رجل يعرف بابن رمانة ، فمكثت عنده قليلا فسمعنى بعض المكيين من هواة الغناء فاشترانى

أخذت الغناء عن ابن سريج وابن محرز ومالك بن ابى السمح ومعبد، وعن جميلة وعزة الميلاء ، وهؤلاء سادة فن الغناء من الرجال والنساء فى مكة والمدينة ، لاينازعهم فيه أحد ..

زاملتنى فى طلب هذا الفن عند هؤلاء الأساتذة الكبار ، صديقتى وحبيبتى : « سلامة » التى سماها أهل المدينة : « سلامة القس » لما اشتهرت قصة حبها لعبد الرحمن القس ، وحبه لها ..

وعن استاذتنا الجميلة أخذنا أسرار صناعة الغناء ، فلها الفضل الأكبر علينا ، وكانت سلامة أحذق منى وأسرع فى فهم الالحان وغنائها على وجهها الصحيح ، فكانت جميلة تأمرها بمطارحتى الألحان حتى أتقنها ، فصار لسلامة عندى فضل التعليم ، فلولاها ما أتقنت الغناء !..

اشتهرت أنا وسلامة معا بإجادة الغناء ، واشتهرت أنا الى ذلك بحلاوة الوجه والظرف والرشاقة والجمال الفائق .. حتى سمانى الناس « العالية » !

زار المدينة يزيد بن عبد الملك ، نائبا عن أخيه سليمان بن عبد الملك الخليفة فى دمشق ، فحدثوه عني وعن سلامة ، فجاء يسمعنا فأدخلت الى مجلسه وأنا فى إزار له ذنبان ، وبيدى دف أنقر عليه وأغنى .

ثم دخلت سلامة فغنته أيضا أجمل غناء ..

فبلغنا بعد انصرافه ، أنه قال : « ماتَقَرُّ عينى فى هذه الدنيا حتى أشترى حبابة وسلامة » ! .. فقيل له : « ولماذا لم تشترهما وفى يدك المال ؟ » . قال : « لو فعلت ذلك وبلغ أخى سليمان ، لأمر بالحجر علىّ ، لأنه يرى مثل هذا العمل سفها يستحق الحجر » ! ..

● اليوم الثانى :

مرت أيام الخليفة سليمان بن عبد الملك القصيرة ، ثم مرت من بعده أيام الخليفة عمر بن عبد العزيز الخاطفة ، ونودى بيزيد بن عبد الملك خليفة فى دمشق ..

حضر رسل السيدة « أم الحجاج » وهى أم الطفل الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وأعلنوا أنهم يريدون شرائى وشراء سلامة ، وشاع فى المدينة انها تريد إهداءنا الى زوجها الخليفة الجديد يزيد بن عبد الملك ، لعلمها بشغفه بنا فسبقته الى شرائنا لنكون هديتها اليه حتى تُوَطىءَ لابنها عنده فى ولاية العهد ..

دخلنا قصر الخليفة فى دمشق يوم جمعة وهو متأهب للصلاة ، فسمعناه يقول لأخيه مسلمة بن عبد الملك :

ـ بماذا كان عمر بن عبد العزيز معدودا عند الناس فى الخلفاء الصالحين ، وبماذا صار أرجى لربه عز وجل منى ؟!

قال مسلمة

ـ بعدله وتقواه وعفافه وزهده ونظره فى مصلحة الرعية !

قال يزيد

ـ فأنا أسير على جادته إن شاء الله ..

فلما فرغ من الصلاة ، عاد الى القصر ، وأمر فأحضرونى وسلامة بين يديه ، وتغنيت فى شعر الأحوص ولحن معبد

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ماالهوى
فكن حجرا من يابس الصخر جلمدا
فما العيش إلا ما تلذ وتشتهى
وإن لام فيه ذو الشنان وفندا

فطرب يزيد طربا شديدا ، وأمر لى بجائزة من جوهر ولؤلؤ ، وأرسل إلى الأحوص أربعين ألف درهم ..

وانشغل بى يزيد ليلا ونهارا ، فأيقنت أنه أحبنى حبا ملك شغاف قلبه ، فلا فكاك له منى ..

وجاءه أخوه مسلمة بن عبد الملك يقول له : ـ يا أمير المؤمنين .. إنك وليت بعقب عمر بن عبد العزيز وهو من تعلم عدلا وصلاحا ورعيا للناس ، وأنت مقيم على الغناء والشراب ، وقد تشاغلت بهذه الجارية عن النظر فى الأمور ... والوفود واقفة ببابك قادمة من أقصى خراسان وأقصى الأندلس ، وأصحاب الظلامات يصيحون فى طلب العدل وأنت غافل عنهم ! .

فوجم يزيد وتفكر مليا ثم قال لأخيه

ـ صدقت والله ، فلا جلست هذا المجلس بعد اليوم ، ولا انشغلت الا لما كان عمر بن عبد العزيز ينشغل به من العمل الصالح ! ..

● **اليوم الثالث** :

مكثت أياما لا أرى يزيد ولايدعونى ، فلما كانت صلاة الجمعة وأراد الخروج لها ، تصديت له والعود فى يدى ، وتغنيت : « وما العيش إلا ما تلذ وتشتهى » !

فغطى وجهه وقال لى مه ! .. لاتفعلى هذا ! .. لاتغنى !

ولكنى لم أكف عن الغناء ، فتوقف ثم عدل إلى ناحيتى وجلس متحيرا ، فغنيته

وعهدى بها صفراء رودا كأنما   نضا غرقُ منها على اللون مجسدا
مهفهفة الأعلى وأسفل خلقها   جرى لحمه مادون أن يتخددا
من المدمجات اللحم جدلا كأنها   عنان صناع مدمج الفتل محصدا
كان ذكى المسك بادٍ وقد بدت   وريح خزامى طلة تنفح الندى

فطرب يزيد طربا شديدا ، وصاح

ـ لعن الله من لامنى فيك ! .. ياغلام .. قل لمسلمة أن يصلى بالناس ! ..

وأقام معى يسمع ، وعاود ما كان فيه !

ثم جاءه أخوه مسلمة ـ وهو رجل صالح حقا ـ فقال له

ـ ضيعت حوائج الناس ، واحتجبت عنهم .. أترى هذا مستقيما لك ، وقد تركت شهود الجمعة الجامعة ، وقعدت فى منزلك مع هذه الاماء المغنيات ؟!

فلما انصرف مسلمة قال لى يزيد

ـ هذا أخى الأكبر ، وهو رجل الحرب والسياسة فى دولة بنى أمية الآن ، ولو لم تكن أمه جارية رومية من جوارى أبى عبد الملك ، لكان مسلمة هذا أحق أبناء عبد الملك بالخلافة من بعده ! ..

فغضبت وقلت :

ـ أترى أبناء الجوارى أقل شأنا من أبناء الزوجات العربيات ؟! .. فما تصنع إذن لو جئت أنا منك بغلام ؟! .. أتعهد له بالخلافة أم لابن زوجة من زوجاتك العربيات ؟! ..

وخرجت من عنده مغضبة ، فلما طال غضبى عليه وهجرى إياه ، دعا خصيا من غلمان القصر وقال له : انطلق فانظر أى شىء تصنع حبابة الآن ! فوجدنى الخادم مؤتزرة بإزار أحمر أصفر مطيب بأنواع العطور الفاخرة ، وللثوب ذيلان طويلان ، وأنا ألهو وألعب بألعابى ، فوقف الغلام قبالتى لحظة ثم عاد إلى يزيد فأخبره ، فشق عليه انشغالى عنه ، وأراد أن يغيظنى ، فدعا بسلامة وأمرها أن تغنى بحيث أسمع غناءها :

فقلت ألا ياليت أسماء أصقبت   وهل قول ليت جامع ماتبددا
وإنى لأهواها وأهوى لقاءها   كما يشتهى الصاوى الشراب المبردا

فعلمت أن سلامة تخاطبنى بهذا الشعر ، وتناشدنى أن « أصاقب » أو أدنو بعد الابتعاد وتؤكد مايحمله يزيد لى من الهوى المبرح والظمأ إلى الصلح بعد الخصام ! ..

فحمدت لسلامة سعيها لوصل ما انقطع بينى وبين يزيد وقلت فى نفسى : « والله لاترى سلامة منى الا خيرا ماعشت ! .. وإنها لخليلتى حقا ، ولا أمسها بشىء تكرهه أبدا مهما حظيت أنا عند يزيد ، وتخلفت هى عنى فى الحظوة عنده » ! ..
فمشيت على مهل حتى بلغت مجلسهما فتوقفت سلامة عن الغناء ووثب يزيد فاعتنقنى فرحا بوصالى ، وجلست فغنيت فى شعر جرير :

ألا حى الديار بسعد ، إنى ... أحب لحب فاطمة الديارا
أراد الظاعنون ليحزنونى ... فهاجوا صدع قلبى فاستطارا

فطرب يزيد حتى أوشك أن يفقد صوابه وصاح : هل أطير ؟! .. فرددت عليه متفترة متدللة والى من تدع الناس بعدك ياسيدى ؟! .. قال : إليك ! ..
ثم قال لى مبهورا :
ـ هل رأيت أحدا أَطْرَبَ منى فى جميع الناس ؟! ..
قلت
ـ نعم معاوية بن عبد الله بن جعفر الهاشمى .

● اليوم الرابع

استدعى يزيد من المدينة ، معاوية بن عبد الله بن جعفر الذى قلت إنه أطرب الناس ، فأرسلت إلى معاوية قبل أن يدخل مجلسنا ألا يظهر امتعاضا مما يراه من أفعال يزيد حين يطرب .. فلما دخل مجلسنا غنيت فى شعر لابن قيس الرقيات ولحن لابن سريج :

حلق من بنى كنانة حولى ... بفلسطين يسرعون الركوبا
هزئت أن رأت مشيبى عرسى ... لاتلومى ذوائبى أن تشيبا

فطرب يزيد وطرب معاوية بن عبد الله ولكنى سمعته يقول همسا : « سوأة لى على كبر سنى أجالس هذا المائق » ! ..
ثم كأنما خشى معاوية أن تفوته الجائزة من يزيد حين يرى قلة نشاطه لغنائى ، فقام معاوية فأخذ وسادة فوضعها فوق رأسه وقام يدور وينادى هو ويزيد فى أبهاء القصر : « الدخن بالنوى » .. وهذا نداء الباعة فى سوق دمشق على « اللوبيا » ..
فأكبره يزيد لما رأى من مسايرته له فى طربه وطريقة تعبيره عن الطرب ، وأمر له بثمانية ألاف دينار ، وهى جائزة لم يأخذ منه مثلها أحد قط ! ..

لم يكد معاوية بن عبد الله ينصرف حتى دخل رجل كنت وصفته ليزيد بشدة الطرب ، فغنيت

تشط غدا دار جيراننا وللدار بعد غد ابعد

فوثب الرجل حتى القى نفسه على نار شمعة كبيرة فأمسكت النار بلحيته ، فجعل يقفز هنا وهناك فى القصر ويصيح : الحريق .. الحريق يأيها الناس ! ..

وضحك يزيد حتى استلقى على قفاه ، وقال :

- لعمرى إن هذا لأطرب الناس ! ..

ووصله بألف دينار ! ..

ويبدو أن ضجة مجلسنا هذا بلغت شيخا خراسانى الأصل يعيش فى القصر ، وهو من شيوخ يزيد ، لكنه أعجمى النطق ، وإن كان عالما بالعربية ..

فجاء الشيخ فأقبل على يزيد يعظه وينهاه عما هو فيه من الغناء واللهو ، فقال له يزيد إجلس واسمع !

فغنيـــت :

وقد كنت آتيكم بعلة غيركم فأفنيت علاتى فكيف أقول ؟

فطرب الشيخ وقال بلكنته الأعجمية لا .. فيف ! .. جعلنى الله فداك ياهبابة ! .. يريد أن يقول : لاكيف ! .. جعلنى الله فداك ياحبابة ! .. وذلك ردا على السؤال الذى فى آخر البيت : « فكيف أقول ؟! .. » ...

ثم قال الشيخ ليزيد :

- هذه جاريتك ملك يمينك ! .. ولا أقول لك : دعها ! ..

وانصرف الشيخ ، ودخل مسلمة بن عبد الملك ، كعادته يعظ أخاه ويحذره عاقبة أمره ، ويذكره بسيرة ابن عمه الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز ..

وسمع يزيد الموعظة مطرقا ، ونظرت الى دموعه تنحدر ! ..

وانصرف مسلمة ، وكأنه رأى أن موعظته هذه المرة أوجعت أخاه وأقنعته ! ..

يوميات أحمد بن أسامة :

مختـــرع النصـــب



الناس يسموننى أحمد النصبى ، وإنما أنا أحمد بن أسامة الهمدانى ، من صميم قبيلة همدان العظيمة .. عشقت الغناء ، فقيل : هذا العاشق الغاوى ، وماغويت والله ولكنى وجدت فى الغناء لذة للنفس والقلب تكتمل بها لذة الشعر ، ولا تنتقص من المروءة شيئا ..

ولقبى الذى التزق باسمى ، مأخوذ من "النصب" ـ بسكون الصاد ـ وهو ضرب من الغناء الرقيق يشبه الحداء ، وماهو بالحداء ولا هو بالغناء الذى لا يصلح ألا بالضرب على العود ..

وأنا صاحب هذا اللون من الغناء .. اخترعته اختراعا ، وغنيته على الطنبور ، وأحدثت فيه ألحانا كثيرة بارعة يعجز عن مثلها جميع الطنبوريين ، وكثير من أصحاب الغناء المتقن الضاربين بالعيدان ..

فلما كثرت الأنصاب التى غنيتها على الطنبور ، واشتهرت فى العراق والشام والحجاز ، قلدنى الطنبوريون فى غناء "النصب" ولم أجد فيهم من جاء بصنعة حسنة ، لأنهم لا يعرفون سر الصناعة التى أنا وحدى صاحبها فى هذا اللون من الغناء ..

وبلغنى أن ابن مسجح وابن محرز وابن سريج ، سمعوا أنصابى من بعض الرواة ، فأعجبتهم ، وحسبك بإعجاب هؤلاء المغنين الفحول من شهادة لى ، مع أنهم يغنون على العود الغناء المتقن ، ويرون الغناء على الطنبور باطلا !..

وقد كسب هؤلاء وغيرهم من خدمة الكبراء والخلفاء ، أما أنا فلم أخدم بغنائى خليفة ولا واليا ، ولم أنظم الشعر ، وأكثر غنائى فى شعر أعشى همدان ، فإنى لم أزل مواخيا له منذ الصبا .. وهو همدانى مثلى ، وشاعر مُفْلِقٌ فى طليعة الشعراء ..

وكثيرا مايقول لى الأعشى :

ـ ما أراك زهدت فى خدمة الكبراء والوزراء بغنائك إلا اكتفاءً بما أفاء الله عليك من اليسار .. ولو كنت محتاجا إلى المال ، لدخلت فى خدمتهم كما دخل غيرك .. وقد تعلم مااجتناه مغنو مكة والمدينة من الثمرات بغنائهم فى مجالس أولئك السادة الكرام .. وأنت مقيم بالكوفة لا تقصدهم ..

فأقول للأعشى :

ـ بلى والله ، فإنى لا أغنى إلا تلذذا بالغناء !..

مع ذلك يزعم أهل الكوفة أنى شديد البخل ، وأنى أقرض الناس بالربا !.. وهذا كله باطل ، فما أنا بالبخيل ولا بالمرابى ، ولكنى رجل لا أنفق المال فى غير موضعه ، ولا أعطى من يسألنى بغير حق .. وكل من يرمينى بنقيصة فليس يخلو

من أن يكون كاذبا أو حاقدا .. فأنا رجل كريم ، شجاع ، حاربت فى عسكر الحجاج ابن يوسف الثقفى ، وأبليت أحسن البلاء ، ومازلت ألبى كل دعوة إلى القتال ، وإن الحجاج لكثير الحروب ، لكثرة الخارجين عليه وعلى بنى أمية ، وما أنا بالمحب للحجاج وسياسته ولكنى مقاتل لا أقعد مع القاعدين !..

● اليوم الثانى :

● عدت من غزوة فى بلاد العجم وكان أعشى همدان معى فى المقاتلة ، فلما فرغنا من الغزاة وأخذنا طريقنا عائدين إلى الكوفة ، نزلنا فى "ساباط المدائن" على رجل كريم لم يكن يعرفنا وهو سليم بن صالح بن سعد العنبرى ، فأحسن الرجل استقبالنا ، وأطعمنا وسقانا ، وأمر لدوابنا بالعلوفة .. ثم سامرنا ساعة واستأذن فى الانصراف ، ليبيت فى سطح منزله ، وكان مبيتنا نحن فى أحسن حجرات المنزل ..

فلما انصرف قلت لأعشى همدان :

ـ أما رأيت جميل صنع هذا الرجل بنا ؟!.. انه والله سخى ذو مروءة يستحق أن تمدحه بشعرك !..

قال الأعشى

ـ نعم وكرامة ، ولكنى اشترط أن تصنع لحنا فى هذا الشعر ، تغنيه فنتسلى به حتى ننام ، أو نسهر على سماعه إلى مطلع الفجر ..

ثم تحرك الأعشى فأخذ ينشد شبه مرتجل قصيدة طويلة فى مدح الرجل ، أخذت منها الأبيات الأولى وهى فى الغزل :

يـا أيهـا القلب المطيـع الهـوى أنَّى اعتراك الطرب النازحُ
تـذكـر جُمْـلاً وَمِـن نَـأْيِـهَـا طـار شعاعـا قلبك الطـامـح
يـاجُمْـلُ مـاحـبـى لكـم زائـل عــنى ولا عـن كبـدى نـازح

فلحنت الأبيات ، وغنيتها وأنا أضرب بقضيب على دواة ، والأعشى ينعر طربا ويستعيدنى ، حتى ظننت أن أهل الحى كلهم قد استيقظوا من نومهم ، فقلت له مستنكرا أو معاتبا :

ـ أيقظت بصياحك الناس ، ولا أستطيع تسكيتك ، ولو سمعنا صاحب الدار لاستخف بنا ، واستقل مروءتنا ، واعتقد أنه أخطأ إذ أنزلنا فى بيته !..

قال لى الأعشى غير مبال بعتابى :

ـ ومن الذى يسمع أنصابك هذه ولا يصيح طربا ؟!.. فاسكت أنت عن

الغناء ، فإنما صياحى من أثر غنائك فى قلبى !.. كأنك أوقدت فى قلبى نارا !..

فبينما نحن كذلك دخل علينا صاحب المنزل ، فقال :

ـ سمعت شعرا ماسمعت أحسن منه ، وغناءً لا يقدر على مثله أحد من حذاق المغنين .. فهلا أخبرتمانى من أنتما .. أمتع الله بكما ، وزادكما فضلا ومروءة ؟!..

قلت له

ـ الشعر لهذا الرجل ، وهو الشاعر المشهور أعشى همدان ، والغناء لى ، وأنا أحمد النصبى الهمدانى !..

فانكب الرجل على رأس الأعشى فأشبعه تقبيلا ، وقال له وهو يكاد يبكى تأثرا وسرورا :

ـ ياسيدى .. مدحتنى بشعر تتمنى مثله الملوك ، وماصنعت لك شيئا أستحق به مدحك !..

ثم تحول ناحيتى فأشبع رأسى أنا أيضا تقبيلا ، وقال لى

ـ ياسيدى .. والله ماظننت أن زمانى يبلغنى هذا الأمل ، فأسمع غناءك فى شعر يمدحنى به أعشى همدان ..

فقمت فأقعدت الرجل وهدأت من روعه ، وقلت له :

ـ والله ماصدق الأعشى قط فى مدح أحد ، صدقه فى مدحك ، لأنه جاء من طبعه ومحبته ، لا من جائزة ينتظرها ..

قال الرجل :

ـ كتمتمانى أنفسكما ، وأوشكتما أن تفارقانى ولم أعرفكما ولم أعلم خبركما ، فوالله ماتطيب نفسى برحيلكما عنى أبدا !..

فأقمنا عند الرجل شهرا ، ثم حملنا على فرسين ، وقال :

ـ خلفا عندى دوابكما ، فإنى أظنكما راجعين إلى الغزو .. فإذا عدتما بالسلامة إن شاء الله ، نزلتما عندى !..

فانصرفنا ، وكان الرجل ذكيا إذ عرف أننا راجعان إلى الحرب التى كنا فيها منذ مدة يسيرة !.. والحجاج بن يوسف الثقفى لا تنتهى حروبه ، فالناس يخرجون عليه فى كل يوم لكثرة مظالمه وشدة بطشه وطغيانه ، ويفضلون الموت على الحياة .. ووالله مانذهب إلى الحرب امتثالا لأمره ، بل رغبة فى جمع كلمة المسلمين ورأب صدعهم !..

ينسى المرء فى الحرب كل مباهج السلام .. فلا يذكر الشعر ولا الغناء ولا الحب ، فإن ذكر شيئا من ذلك ، مر على خاطره مرور الغيمة السوداء ، كأنه يتذكر ماضيا أصبح رجوعه مستحيلا ..

وقد يهجم المقاتل على الأعداء وهو يرتجز ، ولكن الشعر الحقيقى لا يولد بين صليل السيوف !..

وكذلك الغناء !.. فإنى أنسى فى المعركة وقبل المعركة وبعدها أننى مغن وأن لى مذهبا خاصا فى الغناء ، وطنبورا أغنى عليه .. وأنسى أسماء المغنين والمغنيات الذين سمعتهم فى مكة والمدينة ، وامتلأت من غنائهم طربا حتى ظننت أن الدنيا هى الغناء ، والناس هم المغنون !..

جلست مع الأعشى عقب اشتباك دموى مع العدو ، وقد حجز الليل بين المتحاربين ، فقلت للأعشى :

- أتذكر يا أعشى قصيدتك فى سليم بن صالح العنبرى ؟!..

- نعم وكيف أنساها ، وقد غنيتنى فى أبياتها الأولى الغزلية ؟!

- إنى تذكرت الآن قولك فى هذه القصيدة :

إنى لمن سالمت سلم ومن عاديت أمسى وله ناطح
فى الرأس منه وعلى أنفه من نقماتى ميسم لائح
والخيل تعلم يوم الوغى أنك من جمرتها ناضح

فأنت فى هذه الأبيات تزعم أنك تسالم من يسالم سليم بن صالح ، وتنطح من يعاديه حتى يلوح على أنفه وفى رأسه ميسم من النطح الشديد !.. فماذا تقول لو دعاك الحجاج إلى هجاء سليم بن صالح ونطحه على رأسه وأنفه ؟!..

تفكر الأعشى ساعة مطرقا عابسا كأنه لا يحير جوابا ، ثم لجلج قائلا :

- لا أراه يدعونى .. وإنما يحتاج الحجاج إلى سيوفنا لا إلى ألسنتنا !.. وماذا بينه وبين سليم بن صالح مما يدعوه إلى طلب هجائه ؟!..

وتضاحك الأعشى قائلا :

ـ ما أظن أن الحجاج يخطر بباله أن مغنيا عظيما مثلك يحارب فى صفوف جيشه !.. ولو علم أنك تغنى لأعفاك من القتال مع أنه لا يعفى منه أحدا !..

● اليوم الرابع

انتهت هذه الموقعة ، ولا ندرى ونحن عائدان إلى ديارنا متى تنشب معركة أخرى ..

قلت للأعشى :

ـ نمر على ديار سليم بن صالح العنبرى ، كما وعدناه ، وأسألك إذا بلغنا منزله أن تمدحه بقصيدة جديدة ..

فلما شارفنا منزل سليم بن صالح رأيت على سطحه ثعلبا فدهشت ، لأن عهدى بالمنزل أنه معمور محروس ، فكيف طرقه الثعلب وصعد فوقه ؟!..

قلت للأعشى متوجسا شرا :

ـ إنى أرى عجبا !..

ـ ماهو ؟!..

ـ أرى فوق قصر سليم ثعلبا !..

فوجم الأعشى ووقف ، وقال :

ـ لئن كنت صادقا فما بقى فى القرية أحد !..

ـ وكيف يقع مثل هذا الحادث العجيب الرهيب ؟!..

ـ لعل الطاعون أصابهم !..

ـ فكيف ندخل قرية أصابها الطاعون ؟!..

ـ إن الطاعون لا يبقى فيها بعد أن قتل أهلها !..

وأمسك بيدى فمضينا صوب القرية وأنا خائف ، ولا أدرى أكان هو خائفا مثلى أم كان كعادته مغامرا لا يبالى شيئا ..

مشينا فى طرقات القرية فلم نجد أحدا من أهلها ، إلا شيخا حطمته الأيام والأحزان ، فسألناه عن خبر القرية وأهلها وسليم بن صالح سيد القرية ..

لم يسمع الرجل كلامنا ألا بصعوبة ، ولم يجب عنه إلا بصعوبة ، ولكنا فهمنا القصة ، فإن الحجاج الطاغية قبض على "سليم بن صالح" وطالبه بمال عظيم لا يقدر على جمع نصفه ولا ربعه ، فبيعت كل أملاكه ، وخربت القرية ، وتفرق أهلها ، بعد أن أهلك الحجاج أكثرهم !..

ـ وأين ذهب سليم بن صالح ؟!
قال الرجل وقد غلبه البكاء :

ـ باعه الحجاج عبدا فى سوق الرقيق !..
أذهلنا هذا النبأ ، وصاح الأعشى مستنكرا :

ـ وهل يحل له هذا البيع ، وسليم بن صالح رجل حر لم يمسه الرق ، ولم يأسره فى حرب ، وهو مسلم فى دار الاسلام ؟!

قلت للأعشى وقد انكسرت وخامرنى الكمد
ـ وأى شىء لم يستحله الحجاج ؟!

ومضينا إلى الكوفة ، نقصد منازلنا ومن فيها من الأهل والولد ، ولكنا كنا مثقلين بالأحزان

لم نكد ندخل الكوفة حتى فوجئنا بسليم بن صالح وقد خرج من بعض بيوت أشرافها ، ومعه بعض آله الأقربين ، فطرنا اليه نقبل رأسه ونبكى ونسأله عن قصته ..

قال سليم بن صالح :
ـ لا بأس علينا الآن أنا ومن بقى من قومى ، فإن صاحب هذا البيت الكريم من أشراف الكوفة "اشترانى" وأعتقنى لوجه الله !...

يوميات ابن عائشة :

الوليد والساقى



● اليوم الأول :

اسمى محمد ، وأمى اسمها عائشة .. والناس يسموننى "ابن عائشة" .. وقد سألت أمى مرة عن اسم أبى فقالت : كان ـ رحمه الله ـ يسمى جعفرا !.. قلت لها : أَوَقَدْ مات ؟!.. قالت نعم .. مات منذ كنت رضيعا لا تعقل شيئا !..

نشأت أمى مملوكة لبعض القرشيين فى المدينة المنورة فلما ولدتنى نشأت مملوكا مثلها .. ثم صرت صبيا ، وصارت هى ماشطة تدخل بيوت السادة وأهل الثراء لتمشط نساءهم وجواريهم ، فكنت أدخل معها أمسك بذيلها وأنا أكاد أقع على الأرض لصغر سني وضعف بدني ، فإذا دخلت معها إلى البيوت قالت النسوة : هذا ابن عائشة !.. خذ هذه الحلوى يا ابن عائشة !.. هل تأكل أو تشرب شيئا يا ابن عائشة ؟!.. فغلب هذا الاسم على نسبى ، ولم يعد يذكر أبى أحد ، حتى كان بعض الناس يتغامزون على أمى ، ويتهامسون : من أى الرجال جاءت بهذا الغلام ؟!.. فلا سامحهم الله ، وسامح الله أبى الذى لم أره ولا أعرفه !..

عشقت فن الغناء صغيرا أخذته عن سيد مطربى المدينة "معبد" وتلميذه "مالك" .. وصار لى فيه شأن كبير حتى ساويتهما فى المكانة عند الخاصة والعامة !.. مع أنى لست بالضارب الجيد على العود ، وأحسن مافى صناعتى الغنائية ، استهلال الألحان وبدايتها ، فأنا أحسن المطربين استهلالا فى الغناء ، بل أنا ـ والله ـ أحسنهم ابتداء وتوسطا وانتهاء ، بعد أستاذى معبد ، لا تتفوق صناعة أحد سواه على صناعتى .. على أننى ـ والله ـ أطيب منه صوتا بعد أن كبر وتغيرت نبرات صوته وتقاصرت أنفاسه !..

وأهل المدينة يحبوننى ويغمروننى برعايتهم وحمايتهم .. حدث منذ أيام أن رأى أحد أعيانهم خدشا فى جلد رقبتى فوق حنجرتى ، فسألنى مغضبا : من فعل هذا بك ؟! قلت : فلان !.. فمضى هذا الرجل الوقور العظيم المكانة فنزع ثيابه وجلس بقميص خفيف على باب بيت ذلك الرجل الذى خدش الجلد فوق حنجرتى !.. فلما خرج ـ وهو من أقربائه ـ أخذ بتلابيبه وضربه ضرباً شديدا ، والرجل يقول له : مَالَكَ تضربنى ؟!.. أى شيء صنعت ؟!.. وهو يضربه ولا يجيبه عن سؤاله حتى أدمى جلده ، ثم خلاه وأقبل على الناس الذين اجتمعوا يحجزون بينهما فقال :

ـ هذا الأحمق الجاهل خدش حلق ابن عائشة .. أراد أن يكسر مزامير داود عليه السلام !..

أما "أشعب" الظريف ملك الطفيليين وأبرع من يفهم الغناء ويقلد المغنين ، فإنه يقول دائما لأهل المدينة

- لا تتركوا ابن عائشة حتى تزوجوه من أجمل المغنيات صوتا ، حتى يخرج لهما ولد يحمل فى حلقه مزامير داود !..

ويقول لى أشعب :

- أنت والله أظرف مجلسا وأكثر طيبا من أن تجالس هؤلاء الناس ، وإنك لتصلح أن تكون نديم خليفة أو سمير ملك !..

أما "جميلة" أستاذة جميع المغنيات ، فقالت لى :

- .. وأنت يا أبا جعفر .. فمع الخلفاء تصلح أن تكون !..

ولكنى سيىء المعاشرة للناس ، فإذا قال لى أحدهم : غن لنا شيئا !.. صحت فيه : ألمثلى يقال هذا ؟! .. وإن غنيت فقال لى : أحسنت !.. قلت : ألمثلى يقال أحسنت ؟!..

وإننى لأتيه وأتدلل حتى على سيدى الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، فإنه سألنى مرة أن أغنيه فامتنعت ، فتوعدنى لئن لم أغنه مائة لحن ، ليأمرن بطرحى فى ماء البئر حتى أشرف على الغرق !.. واضطررت يومها أن أغنيه بدل الصوت الواحد ، مائة صوت !..

وقد سرنى يومئذ أن أهل المدينة جميعا اجتمعوا يسمعون هذه الأصوات المائة ، فما تشاغل أحد بشىء عن استماع غنائى ، ولا انصرف أحد إلى قضاء حاجة حتى أتممت الأصوات المائة ، ورفع الناس أصواتهم يقولون لى : أحسنت والله !.. أحسنت والله !.. ثم قاموا يزفوننى إلى منزلى بالمدينة كأننى عروس !..

● اليوم الثانى :

قصدت أمير المؤمنين الوليد بن يزيد فى دمشق .. أدخلنى الحاجب فوجدت عنده حمادا الراوية ومعبدا سيد المغنين وتلميذه مالك بن أبى السمح .. فقال لى الوليد :

- أراك فى مقتبل الشباب وكنت أظنك شيخا لاستفاضة شهرتك !..

ثم قال لى غننى

وهى إذ ذاك عليها مئزر
ولها بيت جوار من لعب

فغنيته ، فرمى إلىّ بثوبين فاخرين .. وقال : غننى :

طاف الخيال فمرحبا
ألفا برؤية زينبا

فغنيته ، فوقف يهتز طربا ، ونعر نعرة سمعها كل من فى القصر وأمر لى بألف دينار ، وغمرنى بالخلع السنية !..

فغضب معبد وقال

ـ يا أمير المؤمنين .. إننا مقبلون عليك ونحن شيوخ هذه الصناعة ، وإنك تركتنا بمزجر الكلب ، وجعلت همك كله فى غناء هذا الغلام !..

قال الخليفة

ـ والله يا أبا عباد ماجهلت قدرك ولا سنك ، ولكن هذا الغلام طرحنى فى مثل الطناجير من حرارة غنائه !..

ثم أمر الخليفة لمعبد ومالك بجوائز عظيمة فاقت جائزتى ، وأكثر لهما من الثياب الموشية وحقاق الطيب ، حتى رضيا ، وانصرفا ، وبقيت أنا في حضرته .. فقال لى

ـ أعد ذلك الصوت الذى أتقلب فيه على الطناجير المحمية فى النار !..

فلم أدر أى الصوتين يريد .. ففطن لذلك فقال لى :

ـ أردت صوتك فى شعر أمرىء القيس !..

فاندفعت أغنى الصوت من أوله :

عـهـدتنـى نـاشئـا ذاغـرة ... رجـل الجمـة ذا بطـن أقـب
اتبـع الـولـدان أرخى مئـزرى ... ابن عشـر ذا قريط من ذهب
وهـى إذ ذاك عليـهـا مـئـزر ... ولـهـا بيت جـوار مـن لـعـب

فأوشك أن يخرج من ثيابه طربا ، ونعر أشد من نعرته فى المرة الأولى ، فجاءت سلامة القس فجلست غير بعيد تسمع غنائى وتهز رأسها طربا ، وهى من هى براعةً فى الغناء ، وجمالا فى الصوت ، ومعرفةً بأصول الصناعة !..

وما أعجب تقلبات مزاج هذا الخليفة ، فإنه أمر فجأة بإسدال ستار يحجبه عنى ، فظننت أنه غضب من شىء ، وإذا به من وراء الستار يقول لى

ـ أتحفظ لحن ابن سريج « إنى رأيت صبيحة النفر » ؟!

قلت :

ـ نعمْ يا أمير المؤمنين ، فإنى سمعته منه ..

فأمرنى فغنيت :

إنـى رأيـت صبيحـة النفـر حـورا نفين عـزيمـة الصبـر
مثـل الكـواكب فى مطـالعهـا بعـد العشـاء أطفـن بـالبـدر
وخـرجت أبغى الأجر محتسبـا فـرجعت مـوفـورا من الـوزر

فرفع الوليد الستارة وصاح

- ياغلام اسقنا بالسماء الرابعة !..

فلم أفهم معنى قوله "السماء الرابعة" وقلت لعله اسم إناء كبير من أوانيهم الذهبية التى يطلقون عليها الأسماء العجيبة !..

ثم قال لى متوددا كأننى أنا السلطان لا هو :

- أحسنت والله يا أميرى !.. أعد بحق عبد شمس !..

فقلت فى نفسى أترى كان الشيخ الوقور عبد شمس بن عبد مناف يرتاح ويطيب نفسا لو شاهد حفيده هذا وقد طرح أمور الحكم كلها وراء ظهره وتفرغ لما هو فيه

ثم أعدت عليه اللحن ، فقال لى

- أحسنت أيها الأمير !.. أعد بحق أمية بن عبد شمس !..

فزاد عجبى منه ، وأعدت اللحن فقال

- أحسنت يا أميرى .. أعد بحياتى !..

فأعدت .. فوثب يدور فى القصر من الطرب ، ثم هجم علىّ فأكب يقبل رأسى ثم وجهى ثم صدرى ثم يدى ، فتراجعت وأنا لا أصدق ما أراه وقد ملأنى الذهول والخوف !..

ثم نزع ثيابه فألقاها لى كلها ، وبقى حتى أتوه بمثلها ، ووهب لى ألف دينار أخرى ، وحملنى على بغلة ، وقال لى متهدج الصوت

- أركبها - بأبى أنت - وانصرف ، فقد تركتنى على مثل المقلى من حرارة غنائك !..

وجاءوا بالبغلة حتى وطئت البساط فركبتها وهى واقفة على بساطه ثم انصرفت وقد أيقنت أنه لا يوجد فى الدنيا كلها أطرب من هذا الرجل ، ولا أكرم منه عند الطرب ..

● اليوم الثالث :

فى طريقى من دمشق عائدا إلى المدينة بعد ذلك اليوم الذى لا أنساه عند الوليد بن يزيد ، مررت بوادى القرى ، ويعجبنى حب أهله للغناء .. ولا عجب فهم بين

المدينة والشام ، وانما تتردد أصداء الألحان بين هذين الموضعين !..

لقينى فى وادى القرى رجل يشتهى الغناء أكثر مما يشتهى الحياة والمال والبنين !..

دنا منى وقال :

ـ فديتك !.. أنت ابن عائشة أم المؤمنين ؟!..

فصرخت فيه :

ـ ويلك !.. أكافر أنت أم جاهل أم مجنون ؟! .. ألا تعلم أننى من موالى قريش ، وأمى اسمها عائشة ، وحسبك هذا فلا تكثر من السؤال !..

وأعرضت عن هذا الجاهل الأحمق ، فتمسح بى يسأل :

ـ ماهذا الذى بين يديك من المال والكسوة ؟!..

قلت وقد ضقت به أشد الضيق :

ـ غنيت رجلا كريما فأطربته فأمر لى بهذا المال وهذه الكسوة !..

ـ جعلنى الله فداك .. فهل تمن علىّ بأن تسمعنى ما أسمعته ذلك الرجل الكريم ؟!..

ـ ويلك !.. أمثلى يقال له هذا فى الطريق ؟!.. ثم تجعل نفسك نداً للعظماء فتطلب سماع ما أسمعتهم ؟!

وحركت بغلتى لأنصرف ، فعدا الرجل خلفى حتى لحقنى عند بعض البيوت ، فدخلت البيت ـ ولى فيه صديق ـ ومكثت طويلا لا أدعو الرجل حتى يضجر فينصرف ، فلما أعيانى طول صبره على الانتظار أمرت غلامى بإدخاله ..

قال متوسلا

ـ ياسيدى أنا رجل من وادى القرى اشتهى هذا الغناء !..

قلت :

ـ هل لك فيما هو أنفع لك منه ؟!..

ـ وماذاك ؟!

ـ مائتا دينار وعشرة أثواب تنصرف بها إلى أهلك فتطعمهم وتكسوهم وتسرهم !..

أطرق الرجل قليلا ثم قال :

ـ جعلت فداءك .. والله إن لى لبنية مافى أذنها ـ علم الله ـ حلقة من الصفيح

فضلا عن الذهب !.. وان لى زوجة ماعليها ـ يشهد الله ـ قميص !.. ولو أعطيتنى جميع ما تملك على حالتى هذه من الفقر ، ثم ضاعفت لى العطاء ، لكان غناؤك أحب إلىّ وأعجب !.

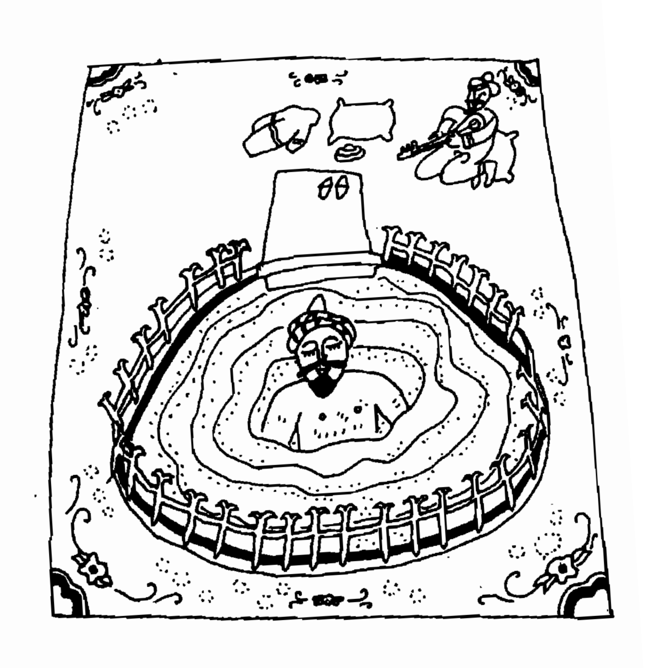
فتعجبت من الرجل أشد العجب ، ودخلتنى الرحمة به ولم يكن معى عود ، فدعوت بداوة أنقر عليها بقضيب وغنيته فطرب طربا شديدا ، وجعل يحرك جسده ورأسه بعنف شديد حتى أوشك رأسه أن يطير !..

ومازلت أغنيه متطوعا غير باخل عليه ـ وأنا الذى أتيه حتى على السلطان وأبخل على السادة ـ حتى هدأ وهمد من فرط الطرب وظننت أنه يهمد حتى يموت !..

ولا أدرى كيف بلغ خبر هذا الرجل معى إلى الوليد بن يزيد ، فأحضره مجلسه ، ووصله صلة سنية ، وجعله فى ندمائه ، وأقامه ساقيا يدور على الندامى !

علمت ذلك فقلت فى نفسى : « والله لأغنين فى زيارتى القادمة للوليد ، غناءً لم يسمع أحد مثله من قبل ، حتى أرى مايكون من شأنه ونديمه الساقى الطروب حين يستبد بهما الطرب ، فكلاهما أطرب من صاحبه ، ولو كان لهذا الساقى سلطان كسلطان الوليد بن يزيد مافعل أكثر مما يفعل بل لعله كان يفىء إلى شىء من العقل بعد نشوة الطرب !..

سقـــوط الفســاد



قال لى أحد أصدقائى : يا أبا هارون .. لماذا أختار لك أبوك اسم « عَطَرَّد » ؟ ! .. قلت : هو اسم من الأسماء لايقدم ولايؤخر ، وما أنا إلا رجل من الموالى نشأت فى المدينة المنورة ، مولى للأنصار .. لاحرفة لى إلا الغناء ، وإنها لحرفة كاسدة فى هذا الزمان إلا إذا اصطفانى الخليفة أو أحد الأمراء ، ومتى يجود علينا الدهر بتحقيق هذه الأمنية ؟ !

قال لى

ـ والله إنك لحسن السمت ، جيد الغناء ، طيب الصوت ، جميل المروءة .. فقيه ، قارىء للقرآن .. فمن يجتمع له مثلك كل هذا ثم لايجد فى الحياة مجالا ؟ ! .

فبينما نحن نتحدث فى هذا وفى غيره من الأمور ، دق بابى جماعة من أهل النعمة ، فخرجت إليهم ، فقال أحدهم

إنى قصدت إليك من أهلى .
فى حالة يأتى لها مثلى

قلت له :

ـ وماحاجتك أصلحك الله ؟ ! ..

قال :

لا طالبا شيئا إليك سوى
« حى الحمول بجانب العزل » .

فقلت :

ـ انزلوا على بركة الله !

فلما جلسوا ، قلت لصديقى الذى كنت أحدثه :

ـ إن سادتنا هؤلاء جاءوا ليسمعوا منى لحنى فى شعر امرىء القيس .

حى الحمول بجانب العزل .
إذ لايوافق شكلها شكلى

قال صاحبى :

ـ قد تخيروا والله لحنا من أحسن ألحانك ، وإنهم ما طلبوا إلا أجود الغناء فى أجود الشعر ..

فلم أزل أغنيهم هذا اللحن ويستعيدونه حتى امتلأوا طربا ، وانصرفوا وقد تركوا لى صرة كبيرة من الدراهم ! ..

● **اليوم الثانى :**

جاءنا فى المدينة خبر وفاة الخليفة هشام بن عبدالملك واستخلاف الوليد بن يزيد بن عبدالملك ! ..

قال الناس فى المدينة : انتهت خلافة بنى أمية ، فقد كان هشام أخر عقلائهم ، تمرس بالحكم عشرين عاما ، وبسط هيبته على دولة الخلافة من الأندلس إلى الهند ، أما وقد توفاه الله ، وتولى الخلافة الوليد بن يزيد ، فإن شمس بنى أمية قد أذنت بالمغيب ! ..

سألت أحد الثقات من أهل العلم بالمدينة :

ـ لماذا يرى الناس أن دولة بنى أمية قد أذنت بزوال ؟ ! ...

أجاب

ـ لأن الوليد بن يزيد سيهدم بجنونه وفساده كل ماتعب فى بنائه أسلافه من بنى أمية أو بنى مروان ..

ـ وكيف ؟ ! ...

سيتلهى بالشراب والنساء والغناء عن أمور الدولة حتى يضيع مصالح الناس ويثيرهم عليه ، وإن بنى هاشم ليتحينون هذه الفرصة منذ قتل هشام بن عبدالملك شهيدهم زيد بن زين العابدين وعرضه على الناس مصلوبا على خشبة ! ... وقد كان زيد رجلا صالحا لايطعن على أبى بكر وعمر كما يفعل كثير من شيعة الطالبيين ..

طرق بابى حاكم المدينة بنفسه ! ...

كنت من قبل لا أجرؤ أن أقف فى الطريق لأرى موكبه من بعيد ! ..

قال لى متوددا

ـ إن أمير المؤمنين أعزه الله كتب يأمرنى باشخاصك إليه فى دمشق !

ثم أخرج الحاكم كتابا مختوما فأقرأنى إياه .. وقال لى والعطف ملء نبراته :

ـ تجهز للسفر من الغد على بركة الله ! ..

زودنى الرجل بنفقة طيبة ، وأمر أتباعه أن يحملونى على ألين محمل فوق بعير فاره حسن المنظر ، ويسيروا فى خدمتى حتى أبلغ باب الخليفة فى عاصمته ! ..

فى الطريق من المدينة الى وادى القرى الى الشام ... كنت أقول لنفسى : كنا فى أيام هشام نخاف من السجن ، إذ كان عماله يأخذون المغنين فيحبسونهم ويعاقبونهم ، ويسمونهم بالمخنثين ، وهانحن هؤلاء نرفع رءوسنا ونقصد دار الخلافة معززين مكرمين ! ..

● اليوم الثالث :

دخلت على الوليد بن يزيد بن عبدالملك ، وفى ذهنى سيرة أبيه يزيد بن عبدالملك الذى مات حزنا لموت « حبابة » المغنية الجميلة التى كانت فى حوزته

لقد سمع « حبابة » عندما كانت جارية فى المدينة ، أناس كثيرون ، أدركت بعضهم فسألتهم كيف كان غناؤها ؟ ! ... فقالوا جميعا انها كانت متوسطة ، لاتعلو ولاتسفل ، وانها كانت لاتساوى شيئا بجانب زميلتها سلامة القس ، ولكن حبابة كانت فائقة الجمال ، فذهبت بعقل يزيد بن عبدالملك ، ومات كمدا عليها حين شرقت بحبة رمان أو حبة عنب ، وماتت ! ! ... ولم يستطع أن يتسلى عنها بسلامة التى كانت هى أيضا فى حوزته ، ولا بأية جارية أخرى ! ...

نظرت متوجسا الى حيث يجلس الوليد بن يزيد ، فرأيته شابا حسن المنظر ، قد طرح هموم السلطان وراء ظهره وجلس على حافة بركة ماء صغيرة !

قال لى ولم يتركنى أسلم عليه

ـ أنت عطرد المغنى ؟ ! ... إن سلامة جارية أبى سمعت عن إحسانك فى الغناء فحدثتنى عنك ! ...

قلت وأنا أدعو فى نفسى بالخير لسلامة التى لم أرها قط والتى قاربت الآن سن الخمسين

ـ إنى خادمك يا أمير المؤمنين ، وأسأل الله أن أبلغ محبتك فيما دعوتنى إليه ! ...

قال الوليد

ـ وحدثونى عن ظرفك وجودة صناعتك ! ... ولقد كنت مشتاقا إليك يا أبا هارون ! ...

هممت بالكلام ، فقاطعنى قائلا :

ـ غننى « حى الحمول بجانب العزل » ..

فغنيته إياه ، وملأ خياشيمى وأنا أغنى نفاح عجيب يجيء من ناحية بركة الماء ! ...

لمحنى الوليد وأنا أغنى ، أشرئب إلى « البركة » أستطلع حقيقة مافيها .. فلم يتكلم حتى أتممت غنائى ، فشق ثياب وشى فاخرة كانت عليه ، وألقاها نصفين ، ورمى بنفسه فى البركة الصغيرة ، فنهل منها ماشاء ، حتى كأنى تبينت النقصان فى مائها ، فلما أخرجوه منها كان أشبه بالميت .

وجاء الخدم بغطاء فوضعوه عليه ونام ، وأخذت أنا الحلة المشقوقة وقمت فانصرفت إلى المنزل الذى أنزلنى فيه ، متعجبا مما رأيت ، مستعيذا بالله من الشيطان ! ...

● اليوم الرابع :

جاءنى رسول الوليد فى بكرة الصباح فأخذنى إليه ، فدخلت وقد جلس كأمس على شفير البركة ، فقال لى :

ـ ياعطرد غننى

أيذهب عمرى هكذا لم أنل بها
مجالس تشفى قرح قلبى من الوجد

وقالوا يُداوى .. إن فى الطب راحة .
فعللت نفسى بالدواء فهل يُجدى ؟ !

فغنيته هذا اللحن ، فصاح طربا ، وشق حلة وشى كانت تلتمع عليه بالذهب التماعا ، أغلى بكثير من الحلة التى شقها أمس ...

ثم ألقى نفسه فى البركة فشرب منها حتى نقصت نقصا واضحا ، وأخرجه الخدم منها ، وألقوا عليه الأغطية فنام تحتها ، فأخذت حلة الوشى الفاخرة وانصرفت ! ...

جلست فى منزلى أفكر فى هذا الذى يحدث أمامى كل يوم ... طال تفكيرى حتى طرق الباب من يستدعينى إلى الوليد فدهشت لأنى تركته منذ ساعة شبه ميت ، فكيف صحا وعاد إلى الدنيا فى ساعة واحدة ؟ ! ...

أدخلونى إليه فى بهو قد ألقيت ستوره ، وإذا به يكلمنى من وراء هذه الستور

ـ ياعطرد ! ...

ـ لبيك يا أمير المؤمنين ! ...

ـ كأنى بك الآن وقد رجعت إلى المدينة فقمت بى فى مجالسها ومحافلها وقعدت تقول دعانى أمير المؤمنين فدخلت عليه فاقترح أن أغنيه فغنيته وأطربته فشق ثيابه وفعل كذا وكذا ..

وصمت لحظة ثم قال فى صوت كالرعد :

ـ والله لئن تحركت شفتاك بشىء مما جرى فبلغنى لأضربن عنقك ! ...

وصمت ثانية ثم صاح :

ـ ياغلام ... أعطه ألف دينار ! ...

ثم قال لى بصوت خفيض :

ـ ياعطرد .. خذ هذه الدنانير وانصرف إلى المدينة ! ...

قلت متملقا أحاول أن أستزيد من عطائه :

ـ إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لى فى تقبيل يده ، ويزودنى نظرة منه ، وأغنيه لحنا جديدا ! ...

قال وقد نفد صبره

ـ لاحاجة بى ولا بك إلى ذلك ، فانصرف ! ...

خرجت من عنده ، وأنا أوصى لسانى ألا ينطق بحرف واحد عما جرى ! ...

● اليوم الخامس :

لسرعان ماتنقضى الأيام ! ...

سقطت دولة الوليد بن يزيد ، وقتله بعض أقاربه بعد أن اتهموه بكل الموبقات ! ... ثم سقطت الدولة الأموية ..

وانقضى من دولة العباسيين حتى الآن ، عهد عبدالله السفاح وعهد أبى جعفر المنصور ... وهانحن هؤلاء فى عهد الخليفة محمد المهدى ! ...

دخلت على المهدى فسألنى عن الغناء وعن علمى به ، فجاذبته من ذلك طرفا ، فقال لى : أتغنى النواقيس ؟ !

ـ نعم يا أمير المؤمنين ! ...

ـ فلماذا سموها النواقيس ؟ !

ـ لأن معبدا حين لحنها جعل فيها ضربا بالعود وترجيعا بالحلق كأنهما قرع النواقيس ، فسميت كذلك ! ...

ـ فغنها إذن وأسمعنا نواقيسك ! ...

فأخذت أغنى :

سلا دار ليلى هل تبين فتنطق
وأنى ترد القول بيداء سملق

فرأيت المهدى يتحرك طربا ، وهو يتماسك احتفاظا بهيبته ووقاره ، حتى أتممت الأغنية ، فأمر لى بمال وثياب ...

لم يشرب المهدى النبيذ على غنائى ، كما يفعله بعض أهل العراق عندما يسمعون الغناء ، فرايهم أن القليل من نبيذ التمر لايدخل فى المحرمات ، ويتعاطونه ، متعللين بكلام لأبى حنيفة رحمه الله لا أظنهم فهموه على وجهه ...

أعجبنى وقار المهدى كما أعجبنى اجتنابه النبيذ ، وتذكرت الوليد بن يزيد فى خلاعته وتضييعه لمصالح الأمة ، فقلت فى نفسى : والله لو خرجت من عند المهدى صفر اليدين بلا جائزة ولا ثياب ، ماساءنى ذلك ... ولقد خرجت من عند الوليد بن يزيد من سنين وفى يدى ألف دينار وأنا أظن أن السماء سترمينى بالحجارة ! ...

وقفت كأنى لا أريد الخروج من عند المهدى فقال لى :

ـ هل من حاجة ؟ ! ..

ـ نعم يا أمير المؤمنين ... تأمر عاملك فى المدينة أن يرفق بى ، فإنه حبسنى مرة وزعم أنى من أصحاب الملاهى الفاسدين ! ...

فضحك المهدى وأمر بكتابة أمر إلى والى المدينة بألا يأخذنى مرة أخرى فى الحبس مع الفاسدين وأصحاب الملاهى وأدعياء الغناء الذين أفسدوا الغناء كما أفسدوا سمعة المغنين ! ...

يوميات عمر الوادى :

المهندس المغنى



● اليوم الأول

اسمى ... عمر ! ...

أما « الوادىّ » ـ بتشديد الياء ـ فهو لقبى ... وكل من سكن وادى القرى بين المدينة والشام ، فلقبه « الوادىّ » ... وقد كثر المغنون من أهل هذا الوادى ، وأشهرهم بعدى حكم الوادى صاحب الأهزاج الجميلة ، وهو تلميذى ؛ أخذ عنى الغناء كما أخذه عنى كثير من الواديين ...

أبى فارسى الأصل ، اسمه داود بن زاذان ، وكان جدى من جملة أرقاء اشتراهم أحد أبناء الخليفة عثمان بن عفان ...

فى بداية شبابى اشتغلت مهندسا ... أبنى القصور الفخمة على الطراز الفارسى لأثرياء الحجاز والشام ، ثم صبوت إلى الغناء حين سمعت ابن سريج والغريض وغيرهما فى مكة ، فأخذت الصنعة وأتقنتها ، وقال الناس إن عمر الوادىّ طيب الصوت شجيه ... ولم يسبقنى الى الغناء أحد من أهل وادى القرى ...

اتصلت بالوليد بن يزيد بن عبدالملك منذ كان وليا للعهد يتحرق شوقا إلى موت عمه هشام بن عبدالملك ليتولى الخلافة من بعده ، ويفرغ للقصف والغناء والشعر واللذات ...

كان المغنون يتجنبون الغناء فى مجالس الوليد حتى لايغضبوا الخليفة هشاما ، إلا أنا فإنى كنت أغنيه ولا أبالى غضب هشام ، فأحبنى الوليد ، وكان إذا طرب لغنائى صاح :

ـ ياعمر الوادىّ ... أنت جامع لذاتى ومحيى طربى ! ...

وزادنى إكبارا فمدحنى بهذه الأبيات

إننى فكرت فى عمـــــر
حين قال القول فاختلجا
انه للمستنيـــر بــــــه
قمر قد طَمَّسَ السُّرُجَـا
ويغنـى الشعـر ينظمـــه
سيــد القـوم الـذى فلجا
أكمل الوادىُّ صنعتـــه
فى لباب الشعر فاندمجـا

فقلت له :

ـ أيها الأمير ... أكرمتنى بهذا الشعر ، وانما يمدح الشعراء الأمراء ، ولايمدح الأمراء الشعراء ... فوالله ما أملك من شيء أجزى به الأمير ـ جزاه الله خيرا ـ إلا أن أغنى فى شعره هذا هزجا يطربه ! ...

وصنعت الهزج وغنيته فطرب طربا شديدا ... وقال لى :

ـ إن غناءك يجمع لى اللذات كلها وإن كنت تغنى مرتجلا لاتضرب بعود ولاتعزف بمعزفة ، وقد سمعت ابن سريج ومعبدا ومالكا ، فما أنت عندى بأقل منهم فى الغناء شأنا ... وإن فيك لفطرة المغنى المطبوع وحسن ذوقه فى الغناء ... إلى جمال صوتك ! ...

● اليوم الثانى :

خرجت أمس قبيل الغروب أتمشى فى الطريق بين المدينة ومكة على الجادة التى يسلكها الحاج ، حتى غربت الشمس وأنا ماش ، فسمعت إنسانا يغنى غناء لم أسمع قط أحسن منه ، فى شعر لكثير عزة :

وكنت إذا ماجئت سُعدى بأرضها
أرى الأرض تُطوى لى ويدنو بعيدها
من الخفرات البيـض ود جليسهــا
إذا ما انقضت أحدوثة لو تعيدها
ألا ليت شعرى بَعدنا هل تغيــرتْ
عن العهد أم أمست كعهدى عهودها
إذا ذكرتها النفس جنت بذكرهــا
وريعــت وحنـت واستخـف جليدهــا
أبيـت نجيـا للهمــوم مسهــدا
إذا أوقدت نحوى بليل وقودهــــا
فأصبحت ذا نفسين : نفس مريضة
من اليأس ماينفك هَمٌّ يعودهــــا
ونفس إذا ماكنت وحدى تقطعــت
كما انسل من ذات النظام فريدها

فوقفت أسمع مشدوها لروعة الصوت واللحن والشعر ، حتى سقطت على الأرض طربا ، ورضنى حجر فى إحدى ساقى رضا مؤلما ... فقلت فى نفسى : والله لألتمسن الوصول إلى صاحب هذا الصوت ولو بذهاب عضو من أعضائى ، ولو كان الحجر قد كسر ساقى الاثنتين لزحفت إلى الصوت لأرى صاحبه ! ... حتى هبطت من المكان المرتفع الذى كنت فيه ، ومضيت أبحث عن الرجل فإذا به راعى غنم يهش عليها عائدا بها إلى دار صاحبها الذى يعمل فى خدمته ...

قلت له

ـ والله ماسمعت أحسن من غنائك ، فهلا أكرمتنى باعادته على مسمعى ؟ !

قال :

ـ والله لو كان عندى طعام لأطعمتك ، ولكنى أجعل هذا الصوت بديلا للطعام والشراب إن شئت ! ...

وغنانى الصوت حتى حفظته ، فلم أزل كلما خلوت بنفسى تذكرته فغنيته متطربا متذكرا صاحبه ... وقد أكون ساعتئذ جائعا فأشبع ، أو مستوحشا فيؤنسنى ، ولكنى ـ مع ذلك ـ أستصغر شأنى فى غنائى هذا الصوت حين أتذكر ماطربت له من غناء ذلك الرجل ! ...

وحدثت بهذا الخبر أناسا فى المدينة وسألتهم

ـ أتعرفون هذا الرجل وأين ذهب ؟ ! .

قال بعضهم

ـ لانعرفه ، وما نظنه إلا عفريتا من الجن ! ...

● اليوم الثالث

تولى الخلافة الوليد بن يزيد فجاءنى رسله يطلبوننى إلى قصره فى دمشق ...

دخلت وسلمت فقال لى :

ـ ياجامع لذاتى ... أترى هذا الخاتم من الياقوت الأحمر الثمين فى إصبعى ! ... أتحب أن أهبه لك ؟ ! .

قلت :

ـ نعم والله ياسيدى ! ...

قال :

ـ غن فى هذه الأبيات ، فإن أطربتنى وهبته لك

ألا يسليك عن سلمى
قتير الشيب والحلم
وأن الشك ملتبــس
فلا وصل ولاصـــرم
فلا والله رب الناس
مالك عندنا ظلــم

وكيف بظلم جاريـــة
ومنها اللين والرُّحْمُ

فتفكرت فى هزج لهذه الأبيات حتى استوى لى ، فغنيته فصاح : أحسنت والله ! ...

واستدنانى حتى وضع يده اليسرى على كتفى فاتكأ عليها والقدح فى يده اليمنى ، وقال لى :

ـ أعد هذا اللحن بأبى أنت وأمى !

فأعدته عليه فشرب القدح ، ثم شرب أقداحا أخرى حتى تعب وجلس ونزع خاتم الياقوت والحلة الموشيه الفاخرة التى كان يلبسها ، فأعطانى الخاتم والحلة ... ثم مال على جنبه منتشيا ونام ! ...

جلست لا أدرى أأنصرف أم أبقى ... حتى دخل « أبوكامل » ... خادم الخليفة ومطربه الخاص ، وهو حسن الغناء ، كثير النوادر والأضاحيك ، فجلس معى ، وقال لى لاتبرح ، فإنه سرعان مايفيق !

فلم يكد الوليد يفتح عينيه ويرانى وأبا كامل حتى قال له

ـ غن .

نام من كان خليا من ألم .
وبدائى بت ليلى لم أنم

فغناه أبوكامل ، فطرب الوليد ، وأمر له بحلة وشى وقلنسوة مطرزة بالذهب ! فملت إليه أسأله :

ـ يا أبا كامل إن هذه القلنسوة الذهبية ليست من لبسك وإنما هى من لبس الملوك وأولادهم ! ...

قال ضاحكا

ـ سوف لا أضعها على رأسى إلا من عيد إلى عيد ، فإنى سأجد فيها ريح سيدى أمير المؤمنين ! ...

ثم قال له الوليد

ـ يا أبا كامل غن :

جنبانى أذاة كل لئيم
إنه ما علمت شر نديم

فغناه فطرب وقام ينشد مدحا فى أبى كامل ، وفى معبد المغنى المدينى العظيم ... قال :

سقيـــت أبــا كامــل
من الأصفر البابلى
وَسَقَّيْتُهَـا معبـــدا
وكـل فتـى فاضـــل
لى المحض من ودهم
ويغمرهـــم نائلـــى
ومالامنـــى فيهـــم
سوى حاسد جاهل

ونحن كذلك ، استأذن الحاجب للمغنى اسماعيل بن الهربذ ، وهو مغن مجيد ، فأذن له الوليد ... ولم يتركه يجلس حتى قال له :

ـ يا اسماعيل ... غن

امدح الكأس ومن أعملها
واهج قوما قتلونا بالعطش
انما الكأس ربيع باكـر
فاذا ماغاب عنا لم نعش

وأصل هذا اللحن لأبى كامل ... وعنه أخذه ابن الهربذ ، ولا يجيد غناءه كأبى كامل ، ولكنه غناه مجتهدا فى أدائه فطرب الوليد ، وقال له :

ـ لولا أن أباكامل معنا هنا ، لقلت إنك أحسن من يغنى هذا اللحن ! ...

ثم ضحك الوليد ، فضحكنا ـ ثلاثتنا ـ مطايبة له . فى ضحكه وسروره ، وخرج كل منا بجائزة كبيرة ، عدا ماكسانا من الثياب ، فضلا عن قلنسوة الذهب التى اقتنصها منه أبو كامل ! ...

● اليوم الرابع

دخلت على الوليد فاذا ستارة حمراء قد مدت واحتجب وراءها ... فسلمت فرد من خلف الستارة ، ونظرت فإذا إلى جانبى حماد الراوية ... وسمعت الوليد يقول له :

ـ ياحماد « ثم ثاروا » ...

فرأيت حمادا قد اضطرب وهو لايدرى ماذا يريد الوليد منه أن يروى من الشعر ... فسكت حماد ، فصاح الوليد :

ـ ياحماد ... ويحك « ثم ثاروا » ...

واذا بحماد يندفع فينشد

ثم ثاروا إلى الصبوح فقامت
قينـــة فـــى يمنهـــا إبريـــــق

قدمته على عقار كعين الديك
صفـــى سلافهـــــا الـــــراووق
ثم فض الختام عن حاجب الدن
وقامـــت لـــدى اليهـــودى ســـوق
فسباهـــا منــــه أشـــم عزيـــز
أريحـــى غـــذاه عيـــش رقيــــق

فإذا جارية قد أخرجت كفا لطيفة من وراء الستارة تحمل قدحا ، والله ما أدرى أيهما أجمل : الكف أم القدح ، فأخذ حماد القدح ، ثم مدت كفها بقدح أخرى فتناولتها وأوشكت أن أتناول معها تلك الكف اللطيفة

وحضر أبوكامل فأمر الوليد برفع الستارة ، وغنى أبوكامل :

ادر الكأس يمينـا
لاتدرهـــا ليســـــار
اسق هذا ثم هذا
صاحب العود النضار
من كميت عتقوهـا
منذ دهر فى جـــــرار
ختموها بالأفاويـة
وكافـــور ... وقـــار

ثم وصل هذا الشعر فى غنائه بثلاثة أبيات ماسمعت أشد منها بعدا عما يجمل أن يقال أو يغنى فى مثل هذا المجلس ، ثم دخل « أشعب » المضحك المغنى المهذار وقد لبس سراويل من جلد قرد وله ذيل ، فرقص وأنشد شعرا وأضحك الوليد فأمر له بجائزة ! ...

وخرجت من هذا المجلس مثقلا بالهم والحزن على الوليد الذى أحببته لكرمه وفطنته فى الغناء والشعر .

وكنت والله أرجو له أن يعقل ويعى مافيه خيره وخير الناس ، ولكن مشيئة الله نافذة ... ولا أراه يبقى فى سلطانه هذا وقد ضيع مصالح الناس ! ...

وأنشدت لنفسى قول الشاعر الأفوى الأودى :

تهدى الأمور بأهل الرشد ماصلحت
وان تولـــت فبالأشـــرار تنقـــاد

وانى لأعلم أن « أشعب » الذى يضحكه ، يعود إلى أهل المدينة فيضحكهم عليه ، ويسميه « الوليد بن يزيد الخاسر » ! ...

فمن ينصح الوليد بن يزيد ، ويحذره عاقبة أمره ، ويقول له : « أتق الله ؟ !

المغنى والقاضى



● اليوم الأول :

من مفاخرى ـ والحمد لله ـ أن قاضى « المدينة » ـ أعزه الله ـ يقبل شهادتى ! ...

إذا دعيت إلى الشهادة فى قضية ينظرها لم يرفض شهادتى ولم يطردنى من ساحة القضاء ، فأنا عنده مقبول الشهادة ، بل أنا من الشهود الصلحاء العدول المعروفين لديه بالورع والتقوى ! ... ويقول أهل المدينة : ما رأينا رجلا صالحا كثير الصلاة والصيام ، مدمنا للحج ، معدل الشهادة مثل دحمان الأشقر ! ...

صناعتى ـ أكرمكم الله ـ هى الغناء ! ... نصف وقتى أغنى فيه للناس ، ونصفه الآخر أطارح فيه الجوارى الغناء حتى يحذقن ويبيعهن سادتهن بالأموال الجليلة ! ... ولى على ذلك أجر ليس بالقليل ولا بالكثير ! ...

قضاة المدينة المنورة لايقبلون شهادة من يحترف الغناء إذا كان غناؤه مصحوبا بسلوك لايحمدونه ! ... وكان معبد ـ وهو شيخ المغنين فى المدينة ـ مقبول الشهادة ... ثم عاشر الخليفة الوليد بن يزيد بن عبدالملك فى مباذله بالشام ، حتى بلغت أخباره قضاة المدينة فسقطت عندهم عدالته فى الشهادة ، مع أن معبدا لم يدخل مع ذلك الرجل فى محظور ، لكنه عاشره وغنى له وقبض جوائزه ، فلما عاد إلى المدينة قيل له بصراحة : يامعبد ... لم يبق فى المدينة قاض إلا ويراك الآن شاهد زور ، لمخالطتك الوليد بن يزيد ! ... فكاد معبد يفقد عقله ، وقال : يامعشر الناس ... ترفضون شهادتى لأنى غنيت لذلك الرجل ؟ ! ... فهل تقبلون شهادته هو ؟ ! ...

فالحمد لله الذى جعلنى أفضل حالا من عظيم المغنين « معبد » ... وقد كان والله رجلا صالحا طيبا ... لولا تلك الهنات الهينات التى أخذوها عليه ، وكان فيها مغلوبا على أمره .

أمس دعيت إلى الشهادة عند قاضى المدينة فى قضية أقامها رجل من أهل الكوفة على رجل من المدينة ، وكان الحق مع المدينى لا مع الكوفى ، ولايشك العراقى فى أنى أشهد بالحق الذى أعرفه فى هذه القضية ...

فلما وقف الخصمان بين يدى القاضى ، وترافعا إليه بالدعوى ، قمت فشهدت بالحق فيما علمت من أمر الرجلين فى دعواهما ، فوثب الكوفى ـ وهو يعلم أنى أشهد بالحق ـ فقال للقاضى :

ـ أصلحك الله أيها القاضى ... أتعرف من هذا ؟ ! ... إنه دحمان المغنى ! ...

قال القاضى :

ـ أعرفه فما تقول عنه ؟ !

ـ إنه يغنى ويعلم الجوارى الغناء ! ..

قال القاضى للرجل

ـ يغفر الله لنا ولك ! ... وأينا لايتغنى ؟ ! ...

وتفكر القاضى لحظة ثم قال للرجل :

ـ قد علمت أنك لم تطعن فى شهادة دحمان لغنائه ، بل لكونك ظالما خصمك ، موقنا بأن دحمان لايمالئك ولايقف لك عندى شاهد زور ، فاخرج أيها الرجل عن حق خصمك وقم بتأديته الساعة إليه كاملا غير منقوص ! ...

فكنت ـ والحمد لله ـ سببا فى سقوط دعوى ذلك الظالم ، وعودة الحق إلى صاحبه ! ...

● اليوم الثانى

الغناء لايكفينى ومن أعول من أهلى الكثيرين ، وليس لى رحلات إلى دمشق كرحلات معبد وغيره من كبار المغنين إلا فى الندرة ، ومافزت من أحد هناك بشىء أغنانى ..

لهذا اهتممت بحرفتى التى نشأت فيها ... فأنا رجل أمتلك خمسة عشر جملا أكريها إلى المواضع والبلاد التى يقصدها الناس ، وأدخل فى التجارة على قدر طاقتى ، بائعا مشتريا متكسبا ، أتسبب وأطلب الرزق ، فيرزقنى الله من حيث لا أحتسب ، وأحمد الله على تمكينه أياى من فعل الخير والتحلى بالمروءة فى ثرائى وافتقارى ! ...

أمس كنت أمر بقافلتى الصغيرة على بلد ، فإذا جارية خرجت من بيت ، فقلت لها : أيبيعك سادتك لى ؟ ! ...

قالت

ـ أنا مملوكة لسيدة من قريش ! ...

ثم دخلت البيت فقالت لسيدتها : هذا انسان يشترينى ياسيدتى ! ..

قالت السيدة :

ـ أئذنى له ...

فلما دخلت عندها قالت لى بكبرياء :

ـ ياهذا ... أنت رجل تكرى الجمال فمن أين لك ثمن جارية كهذه وهى مغنية بارعة وقد سامنى فيها منذ أيام رجل من قريش ، حتى استقر ثمنها على مائة وخمسين دينارا فلم أقبل ورددته ، وهو وأنا من قريش ، لا من الموالى أمثالك !

قلت لها

ـ ياسيدتى أنا أبلغ بثمنها مائتى دينار ! ...

فقبلت وأخذت منى المال وانصرفت أنا والجارية ، فى طريقى إلى الشام ، فبينما كنا نستريح يوما فى الظل ، أخذت ألقى عليها لحنا لى حتى حفظته ، وطلع علينا راكب فقال : أتأذنون لى أن أنزل ساعة تحت ظلكم هذا ؟ !

فأنزلناه وأطعمناه وأسقيناه وغنيناه أنا والجارية حتى تملكه أشد الطرب ، فقال لى :

ـ أتبيعنى هذه الجارية ؟ !

قلت له كالعابث :

ـ ثمنها عشرة آلاف دينار ! ...

فأعطانى المال وأنا مشدوه يكاد الجنون يستلب عقلى ، فإنى ربحت تسعة آلاف وثمانمائة دينار فى هذه الجارية ولم أتعب فى تعليمها ولا نالنى منها غرم فى شىء ! ...

فلما انقضى زمن أقبل رسل من عند الخليفة الوليد بن يزيد فقالوا

ـ أجب أمير المؤمنين ! ...

فقلت فى نفسى

ـ إنا لله وإنا إليه راجعون ! .... لن يقبل قاضى المدينة شهادتى فى محكمته بعد اليوم ! ...

وعجبت أن يذكر الخليفة اسمى ويطلبنى وأنا لم أغنه من قبل !

فلما مثلت بين يديه ، رأيت عنده جاريتى التى بعتها بعشرة ألاف دينار ، فعلمت أنه صاحبها وأنها قد حدثته عنى ! ...

قال لى

ـ كنت أظن أنى لم أسمع غناءك حتى أخبرتنى الجارية أنك أنت الذى بعتنى إياها وغنيتنى فى ظل تلك الشجرة فى ذلك اليوم ! ...

أقمت عنده أياما قصارا ، غنيته فيها ، ثم شغلته الحوادث الجسام التى أودت بحياته ومملكته فعدت مسرعا إلى المدينة ، أحلف للناس أنى ماشاركته فاحشة قط ... فصدقونى والحمد لله ! ...

● اليوم الثالث

عشت حتى رأيت نهاية دولة الوليد بن يزيد ودولة الأمويين كلها من بعده كانت رذائله وحماقاته إرهاصا بزوالها ! ...

عشت بداية خلافة بنى العباس ، لم أغن للخليفة الأول منهم « عبدالله السفاح » ولا للخليفة الثانى « أبى جعفر المنصور » ... وكلاهما كان مشغولا بتدعيم الدولة فى نشأتها .

ثم مضت على ذلك خمس وعشرون سنة حتى شابت مفارقى ولحيتى فصبغتها بالحناء ، وانطويت على مهنتى القديمة أرتزق من الإبل ، ذاهبة جائية من المدينة وإلى المدينة ... وقال الناس : قد نسى دحمان الغناء ! ... وغرهم سكوتى ، ووالله لو نسيت اسمى مانسيت الغناء ، فإنه ليجرى مع دمى فى عروقى ! ...

مات الخليفة أبوجعفر المنصور ، وكان مشهورا بالبخل الشديد ، فاستدعانى ابنه الخليفة الجديد محمد المهدى ، فقلت فى نفسى : ان من أعظم البلاء أن أجد هذا الخليفة الجديد على أخلاق أبيه الذى كان لايعطى أحدا درهما إلا بعد تدقيق شديد ... وقد غناه أو حدا به مرة أحد المغنين فأعطاه درهما واحدا ثم استرده منه ! ...

حاولت أن أتخلف عن دعوة الخليفة ، فقلت لرجاله الذين جاءوا يستدعوننى إنى تركت الغناء من زمن وشغلتنى التجارة وهذه البعران التى أكريها وأرتزق منها ...

قالوا

ـ لابد من الإجابة ! ...

فلما دخلت على المهدى ... قال لى :

ـ أنت تلميذ معبد صاحب الألحان الرنانة التى يسمونها النواقيس ؟ ! ...

ـ نعم يا أمير المؤمنين ...

ـ فقد قيل لنا إنك من أحذق تلاميذه الباقين الآن فغننا من أحسن غنائك !

فتفكرت لحظة لطول انقطاعى عن الغناء ثم ضربت بالعود واستجمعت نبرات حنجرتى وغنيته فى شعر الأحوص :

سرى ذا الهم بل طرقا
فبـت مسهـدا قلقـا
كـذاك الحـب ممـا
يحدث التسهيد والأرقا
قَطُوف المشى إذ تمشى
ترى فى مشيها خرقـا
وتثقلهـا عجيزتهـا
إذا ولـت لتنطلقـا

فاستخفه الطرب حتى قال لى :

ـ سلنى ماشئت ! ...

قلت وانا بين الطمع والخوف :

ـ ضيعتان بالمدينة يقال لهما « ريان » و« غالب » ! .

فأمر المهدى بإقطاعى إياهما وكتب توقيعا بذلك ، فلما خرجت الرقعة بالتوقيع إلى الوزير ، هاله الأمر ، فدخل فقال للخليفة :

ـ يا أمير المؤمنين ... إن هاتين الضيعتين لم يملكهما قط إلا خليفة ... وقد حاول بعض أبناء خلفاء بنى أمية أن يملكوهما فلم يستطيعوا ، فكيف تعطيهما جائزة لمغن ؟ ! » ...

قال المهدى متفكرا

ـ قد أمرت له بهما ولا أرجع فيهما إلا بعد أن يرضى ، فصالحوه عنهما بما يرضيه من المال ! ...

فصالحنى الوزير عن الضيعتين بخمسين ألف دينار ، وخرجت من الصفقة مغبونا ، فإن الضيعة الواحدة منهما تساوى مائة ألف ! ...

● اليوم الرابع

عشت طويلا ! ... عاصرت سبعة خلفاء من بنى أمية وها انذا فى آخر عهد المهدى الخليفة الثالث من بنى العباس ...

ضعف صوتى ، فمن يسمعنى الآن لايعرف كم كان جميلا صوتى وقويا فى شبابى ، وإلى سنوات قلائل مضت ! ...

سمعنى أمس ابراهيم الموصلى المغنى الشاب المشهور ، فسئل عن رأيه فيما سمع من غنائى فأجاب

ـ لو كان دحمان عبدا ما اشتريته على غنائه بأربعمائة درهم ! ...

فحزنت لهذا الرأى حزنا شديدا ، لأنه رأى صحيح ، لم يتحامل فيه الموصلى على غنائى ولا على نبرات صوتى التي ذهبت الأيام بأجمل وأقوى مافيها ... ولكن ابنى « الزبير ورث جمال صوتى القديم واظنه سيكون صاحب شأن فى هذه الصناعة ، وكذلك ابنى الآخر « عبدالله » . وقد علمت أن الموصلى يفضل « الزبير » على أخيه « عبدالله » تفضيلا شديدا ، ويقول :

ـ الزبير بن دحمان ، أفضل فى الغناء وحلاوة النبرات من أبيه وأخيه ! ...

ذكرت شبابى وحياتى فى الحجاز ، فتشوقت إلى تهامة وإلى البادية ، مع ثرائى وطيب ثوائى فى بغداد ، فرفعت صوتى أغنى فى شعر لحسان بن ثابت يذكر فيه إحدى حبائبه فى شبابه :

أسكن البدو ما أقمت ببدو
فإذا ماحضرت طاب الحضور

أى عيش ألذه لست فيـــه
أو ترى نعمة به وســـــــرور

فإذا ولدى الزبير وأخوه عبدالله يقفان على رأسى يسمعان الصوت ويأخذانه عنى .

فلما شعرت بهما قطعت الغناء ، وقلت لهما :

ـ انما أتسلى بمراجعة الماضى ! ... وقد حدثنى من سمع هذا اللحن من صاحبه ابن مسجح شيخ الغناء المتقن الأول ، أن الطير كانت تقف على شجرة قريبة منه إذا غناه ، لاتزقزق ولا تتحرك ، فإذا فرغ من غنائه عادت تتحرك وتزقزق وقد استطارها الحبور ! ...

يوميات الزبير بن دحمان :

الغناء في الصحراء



● اليوم الأول :

لما تلقينا الأمر من والى « المدينة » ـ أنا وأخى ـ بالسفر إلى بغداد ، تذكرت أبى ـ رحمه الله ـ وقلت فى نفسى : لولا أن أبى كان مشهورا بالغناء عند الخلفاء والكبراء فى بغداد ، لما أرسلوا يطلبوننى أنا وأخى لنملأ مكانه عندهم ، وقد علموا أننا نغنى ونضرب بالعود ونروى الغناء الذى كان يرويه أبى عن أستاذه الكبير « معبد » ! ...

كان أبى يلقب « دحمان » ... واسمه عبدالرحمن بن عمرو ، وأصلنا من الموالى ، وسكنانا فى « المدينة » ... وأبى ـ مع شهرته بالغناء ـ كان رجلا صالحا كثير الصلاة ، مقبول الشهادة عند القضاة ، مدمنا للحج ، وكثيرا ماكان يقول مارأيت باطلا أشبه بحق من الغناء ! ...

قال لى أخى ونحن فى طريقنا إلى بغداد

ـ يازبير ... أترانا نفوز بطائل من الخليفة والكبراء ، وعندهم إبراهيم الموصلى وابن جامع ويحيى المكى ، فضلا عن إبراهيم بن المهدى وهو أخو الخليفة ، وصوته أجمل الأصوات ؟ ! ...

قلت لأخى

ـ ياعبيد الله ... إن أبانا ـ رحمه الله ـ كان يجد مكانا عند الخليفة المهدى ، قبل أن يتولى الخلافة ابنه موسى الهادى ، ثم هارون الرشيد ، وقد أخبرنى الثقات أن الرشيد بصير بجيد الغناء ... وعندنا من الغناء الجيد مايعجب الخليفة إن شاء الله !

وقفنا على باب قصر الخليفة فى بغداد فقيل لنا :

ـ من أنتما ؟ ! ...

قلت

ـ هذا عبيد الله بن دحمان ، وأنا أخوه الزبير بن دحمان ، ابنا دحمان الأشقر المغنى الذى عرفتموه قديما ! ...

رحبوا بنا وأدخلونا من فورهم إلى القصر ، واستأذنوا لنا ، فوقفنا فى حضرة الرشيد ، ومجلس الغناء منعقد هناك ، وفيه ابن جامع وإبراهيم الموصلى وابنه اسحاق وإبراهيم بن المهدى وآخرون

فلما أمرنا الرشيد بالجلوس ، كان مجلسنا بجنب إبراهيم الموصلى وابنه ،

فسمعت اسحاق يهمس لأبيه :

ـ يا أبت ، إن الزبير أفضل من أخيه فى الغناء !

ـ وكيف تحكم بهذا وأنت لم تسمع شيئا منهما بعد ؟ !

ـ عرفت هذا بالظن والتخيل والفراسة ! ...

ـ ننظر فى فراستك يا اسحاق ! ...

ثم غنى أخى عبيد الله ، وغنيت بعده ، فسمعت اسحاق يقول لأبيه

ـ قد بان الآن فضل الزبير على أخيه وصحت فراستى ! ...

كان المغنون فى تلك الأيام حزبين : حزب إبراهيم الموصلى ، وحزب ابن جامع وإبراهيم بن المهدى ، فمال أخى إلى حزب ابن جامع وابن المهدى ، وملت أنا إلى حزب إبراهيم الموصلى لما رأيته من إعجابه بى ، وتقريظه لى ، ولما ثبت لى من فضله فى صناعة الغناء على جميع أهلها !

وكان ميل أخى إلى جنبة ابن جامع وابن المهدى ، ميلا شديدا فكرهه الموصلى وابنه اسحاق وأنكرا فضله فى الصناعة ، وحكما ـ بغير حق ـ أنه متخلف عنى ، حتى قال اسحاق بن إبراهيم الموصلى

ـ لو كان عبيد الله بن دحمان مملوكا يباع ويشترى ماطابت نفسى على أن أشتريه بأكثر من عشرين دينارا ... أما أخوه الزبير ، فلو كان مملوكا لاشتريته بعشرين ألف دينار ! ...

● **اليوم الثانى :**

لم أكد أحضر الليلة الأولى فى مجلس الرشيد ، حتى تجهز فى الصباح للخروج بالجيش إلى « الرى » فى بلاد فارس لمحاربة بندار هرمز ، فأقمنا فى منظرة لإبراهيم الموصلى على الطريق ، نظيفة الفرش ، طيبة الهواء واسعة ، فلما انقضت مدة الحرب ، وعاد الرشيد ظافرا ، قال الشعراء فى ذلك أشعارا كثيرة ، تخيرت منها هذا الشعر لأبى العتاهية ولحنته وغنيته فى أول مجلس للغناء فى القصر بعد عودة الرشيد

ألا إن حزب الله ليس بمعجز
وأنصاره فى منعة المتحرز
أبى الله أن يعصى لهارون أمره
وذلت له طوعا يد المتعزز
أطاعت لهارون العداة لدى الوغى
وكبر للاسلام بندار هرمز

فاستحسن الرشيد اللحن ، وأمر لى بألف دينار ... وغنى بعدى المغنون وأجازهم ، ثم تغنيت صوتا ثانيا :

وأحور كالغصن يشفى السقام
ويحكى الغزال إذا مارنا
شربت المدام على وجهه
وعاطيته الكأس حتى انثنى
وقلت مديحا أرجى به
من الأجر حظا ونيل الغنى
وأعنى بذاك الامام الذى
به الله أعطى العباد المنى

فما فرغت من الصوت حتى أمر لى بألف دينار ثانية ... واستظرفنى وصرت خفيفا على قلبه ! ...

فلما انتهت السهرة استبقانى الرشيد واستبقى إبراهيم الموصلى ، فغنيناه عدة ألحان ، فطرب وامتلأ سرورا ، ثم قال للموصلى وكأنه يتفكه

ـ يا إبراهيم ... ماتقول فى الزبير بن دحمان ، وفى أخيه ، وفى أبيه ؟ ! ...

قال الموصلى :

ـ أما الزبير فمن أحسن من عرفت عقلا ودينا ونبلا وأدبا وسكونا ووقارا ، وكان أبوه قبله كذلك ... ولكن أباه ماكان يساوى على الغناء أربعمائة درهم ، وكذلك ابنه عبيدالله ، أما الزبير فقد أجازه أمير المؤمنين فى ليلتنا هذه بألفى دينار ، وهو مستحق للجائزة ! ...

هممت أن أتكلم ذيادا عن أبى وأخى ، فضحك الرشيد وقال :

ـ يازبير ... إن إبراهيم صديقك ، وهو غير جاد فيما يقوله عن أبيك وأخيك ! ...

● اليوم الثالث :

أغنتنى جوائز الرشيد فى مدة يسيرة من الأيام ، فأقمت ببغداد ، وأرسلت إلى حرمى وأولادى فجاءوا من المدينة وأقاموا بالدار الواسعة الجميلة التى اشتريتها ، وصرت دائم الحضور لمجالس الغناء فى القصر ، واشتد احترام المغنين لى ، لاينادوننى إلا بكنيتى .. حتى إبراهيم الموصلى وابنه يقولان لى : يا أبا العوام ، ولا يقولان : يازبير ...

نحن الآن فى مدينة « الرقة » بالشام ، بصحبة أمير المؤمنين ، وهو يحب هذه المدينة ويستطيب هواءها ، ويخرج الى ظهرها للصيد ، ويقضى أيامه فيها هانئا سعيدا فيطول به وبنا المقام هناك حتى يهتاجنا الشوق إلى بغداد والعراق ..

طالت أيامنا بالرقة ، فتشوقت إلى بغداد ، وذكرت ذلك لاسحاق الموصلى ، فانبعث شوقه الى بغداد وطيبها وأهله بها وإخوانه وأولاده ، وعرض له الهم والفكر حتى بكى وأبكانى ، ونظم هذه الأبيات ، يخاطبنى فى مطلعها بكنيتى

أسعد بدمعك يا أبا العوام
صبا صريع هوى ونضو سقام
لم يبد مافى الصدر إلا أنه
حيا العراق وأهله بســـــلام
ودعـــاه داع للهوى فأجابـه
شوقـــا إليـــه وقـــاده بزمـــام

وصنع اسحاق فى أبياته هذه لحنا ، وغناه فى مجلس الرشيد ، فقال له :

ـ تشوقت والله يااسحاق ، وشوقت ، وبلغت ما أردت ! ...

وأمر له بثلاثين ألف درهم ! ...

وأمر لى بعشرين ألفا ! ...

ثم أمر بالرحيل إلى بغداد ! ....

وأرحنا فى الطريق ...

فخرجنا إلى صحراء الرقة ـ أنا واسحاق ـ وليس معنا أحد ، فتمشينا وتحدثنا وأكلنا ماحملناه معنا من طعام ، ثم جلسنا فغنى اسحاق لحن أبيه فى شعر أبى العتاهية :

أشاقك من أرض العراق طلول
تحمـــل منهـــا جيـــرة وحمول ؟ !
وكيف ألذ العيش بعد معاشـر
بهم كنـــت عند النائبـــات أصـــول

فقلت له :

ـ أنت الأستاذ وابن الأستاذ السيد ، وقد أخذت عن أبيك هذا اللحن كما أخذته أنت ، ولكنى أغنيه أحسن ، فقال :

ـ والله انى لا أحب أن يكون ذلك كذلك ! ...

فغضبت وقلت :

ـ فأنا والله أحسن غناء منك ! ...

وتلاحينا طويلا حتى كدنا نتشابك بالأيدى ، فقال لى اسحاق

ـ أترضى فى الحكم بأول من يطلع علينا فى هذا الطريق من الناس ؟ !

فطلع علينا رجل حبشى الخلقة يحمل فأسا ، وإذا هو أجير ممن يفلحون الحقول ، فحدثناه بالقصة ، واندفعت فغنيت اللحن ، فطرب الحبشى وحرك رأسه ، وأظهر فهما وتذوقا عجيبا للغناء ، وتكلم فإذا هو من أفصح الناس

ثم غنى اسحاق اللحن ، فصار الحبشى يتأمله وهو يغنى وتتسع عيناه دهشة حتى صاح فى وجه اسحاق

ـ أى شيطان أنت ؟ ! ...

فما أذكر أن اسحاق الموصلى ضحك مثل ضحكه يومئذ ، فضحكت أيضا ، ولكن ضحك اللامبالاة والتسليم لا ضحك الظفر والاعجاب بالنفس !

ثم قلت لاسحاق :

ـ جعلنى الله فداءك ... أين أنا منك ، وأنت أنت ... وإنما أنا وأمثالى أخذون هذه الصناعة من أبيك ومنك ! ...

قال لى

ـ فما عندك لهذا الرجل الطروب الصحيح التمييز فى الغناء ؟ !

أفرغت ماعندى من دراهم وأفرغ اسحاق ماعنده فى حجر الرجل ... فنهض فانتثر مافى حجره من المال ودخل فى الرمال ، ولم يلتفت إلى درهم ، ومضى يحمل فأسه ليفلح الأرض التى يزرعها ! ...

● اليوم الرابع

غضب الرشيد على زوجته زبيدة ، وغضبت هى منه ، لأمر من الأمور التى تعرض للسادة والسيدات فى القصور العالية ، فأرق الرشيد ليلته وأمر ففرشوا له سريرا فى شرفة بالقصر فوق نهر دجلة ، فقعد ينظر فى النهر يتلألأ بالأضواء المنبعثة من القصور القائمة على شاطئيه ، وقد زاد فيه الماء زيادة عجيبة

وكنت فى تلك الليلة مدعوا للغناء فى قصر لبعض الكبراء قريب من قصر الرشيد ، فرفعت صوتى فى سكون الليل أغنى فى شعر العباس بن الأحنف :

جرى السيل فاستبكانى السيل اذ جرى
وفاضت له من مقلتى غروب
وماذاك الا حيـن خبـرت أنـه
يمـر بـواد أنت منه قريـب
يكون أجاجا ماؤه فإذا انتهـى
إليكـم تلقى طيبكم فيطيـب

فقال الرشيد لمن حوله

ـ هذا غناء الزبير بن دحمان ، وهذه نبرات صوته لايخطئها سمعى ، فابعثوا إليه ! ...

فلما وقفت بين يديه سألنى عن قائل الشعر ، فقلت : هو العباس بن الأحنف ، فأحضره واستنشده هذه القصيدة وغيرها ، فجعل العباس ينشد وأنا أغنى ، والرشيد يستعيدنا حتى طلع الصبح ، فأجازنا بمال عظيم ، وقام فدخل إلى زبيدة ، فرضى عنها ورضيت عنه ! ... وعرفت زبيدة أنني والعباس بن الأحنف كنا سبب رضا الرشيد عنها ، فأرسلت إلى كل منا ألف دينار ! ...

صحبنى العباس بن الأحنف هذا اليوم وقال لى

ـ والله لا أدعك حتى تغنى لى فى شعر الأحوص لحنا كان يغنيه أبوك ، وسمعته من بعض المغنين :

وإنى لآتى البيت ما إن أحبه

وأكثر هجر البيت وهو حبيب

واغضى على أشياء منكم تسوءنى

وأدعى إلى ماسركم فأجيب

وأحبس عنك النفس والنفس صبة

بقربك والممشى إليك قريب

فغنيته اللحن على وجهه الصحيح ، وجودت فى أدائه ، فصاح العباس طربا ، ولطم خديه ، وبكى ، فسألته عما حرك فيه هذا الغناء من الوجد والشجن ، فقال

ـ أنا والله هذا المحب الذى يحبس نفسه عمن أحبه !

فبقيت عنده حتى سكنت نفسه ، وسليته بحكايات ، وغنيته أهزاجا خفيفة ... وعرفت منذئذ أن العباس بن الأحنف هو أعشق الناس ، وأشد الناس اكتواء بلهيب الحب والهجران ! ...

يوميات ابن جامع :

مطرب من قريش



● **اليوم الأول :**

صحوت قبل الفجر بساعة ... توضأت وخرجت من بيتى مسرعا إلى أقرب مسجد ، وما أكثر المساجد فى بغداد ... جلست فى ركن من المسجد أتلو لنفسى القرآن الكريم بصوت هامس حتى تحين الصلاة .. قمت إلى الصلاة وقد قرأت قرآنا كثيرا .

تلك عادتى كل يوم ، إلا يوم الجمعة ، فإنى لا أبرح المسجد بعد الفجر ولا بعد الشروق ولافى الضحى ، بل أجلس فى مكانى من الفجر إلى الظهر أتلو القرآن لنفسى حتى أختمه كله ، فإذا أديت صلاة الجمعة انصرفت قرير العين بما قرأت وبما صليت ..

أعود إلى بيتى فأنام إلى صلاة العصر ، فإذا قضيتها ، قمت أستجمع همتى ، وأجمع أدواتى وآلاتى لعملى كل ليلة فى قصر الخليفة هارون الرشيد ، أو فى قصر أحد عظماء الدولة ...

صوتى - والحمد لله على نعمائه - أجمل الأصوات ، وأحلاها جميعا ، يشبهون حلاوته بعسل النحل ... لاينافسنى مطرب آخر فى جمال الصوت وحلاوته ، أما براعة التلحين فينافسنى فيها إبراهيم الموصلى وابنه اسحاق ... كلاهما بارع فى الصنعة ، ولا أعرف أحدا يقاربهما فى العلم بالغناء ..

إن إبراهيم الموصلى هو صديقى وأخى فى الفن ، وليس صوته بمكتمل الجمال ، وإن عيوب حنجرته لكثيرة ، ولكنه يداريها بجودة ألحانه ، وحسن أدائه ، واكتمال معرفته بصناعة الغناء ، أما أنا فإن صوتى هو سلاحى الأول فى معركتى التى أخوضها كل ليلة ضد المغنين فى سهرات الرشيد وغيرها من سهرات صفوة بنى هاشم وأرباب السيوف والأقلام فى بغداد من عرب وعجم ! ..

اسمى اسماعيل بن جامع ... لست بفارسى ولا نبطى ولا رومى ، وهذا مايثير حسد أهل صناعتى الذين ينحدرون جميعا من أصول عجمية .

لم يكن أبى حائكا ولاحجاما ولا بيطارا ولا خزافا ولا صاحب حرفة من هذه الحرف التى يرتزق بها سوقة الأعاجم والموالى الذين تغص بهم بغداد ، فهم طبقتها الدنيا ، وهم الخدم والأرقاء والشطار وقاطعو الطرقات ليلا ونهارا ..

أنا ولافخر عربى قرشى الأب والأم .. مات أبى وأنا رضيع فلم أره ولا أعرف عنه شيئاً ، فلما كبرت قليلا تزوجت أمى برجل من اليمن وهى يومئذ أرملة جميلة

صغيرة ، أما زوجها الذى مازلت أتذكره ، فكان كهلا دميما ، من حشوة الناس ، فلم تصبر على الحياة معه فى بلده ، وتشوقت إلى أهلها فى مكة ، فذهبت إلى أمير اليمن حينذاك تطلب الطلاق من هذا الزوج الذى نكبتها به الأقدار ، فقال لها حاجب الأمير : تعالى غدا تجدى الأمير جالسا للمظالم فاعرضى عليه قصتك ! ...

عادت أمى إلى بيتها وأنا فى أثرها ممسك بذيلها ، وألقت على زوجها الراقد فى البيت نظرة ، ثم قالت له :

ـ موعدنا غدا فى مجلس الأمير لتطلقنى .

قال زوجها معاندا

ـ بل تقيمين فى بيتى ولا أطلقك أبدا .. لن تبرحى صنعاء ولن ترى مكة مادمت حيا ..

فلما جلس الأمير « معن بن زائدة » أمير اليمن لينظر فى المظالم ، رفعت إليه أمى قصتها وقالت له

ـ إن عمى فى مكة قد زوجنى هذا الرجل وليس بكفء لى ، فإنى من قريش رهط النبى صلى الله عليه وسلم .. ففرق أيها الأمير أصلحك الله بينى وبين هذا الزوج !

قال الأمير لزوجها :

ـ أيها الرجل ... خل سبيلها ... فلست لها بكفء ! ...

طلقها الرجل ، وأمر لها الأمير الكريم بمائتى دينار ، نفقة تتجهز بها إلى مكة ...

● **اليوم الثانى :**

المغنون الآن ـ وأنا الآن أكثرهم قبولا عند الخليفة وعند الوجهاء والكبراء ـ يستخفون بنسبى وحسبى ، ويقول لى السفهاء منهم :

ـ ما أنت إلا من شحاذى بنى سهم ، ولاينفعك أن يكون بنو سهم من صميم قريش ... ولئن صرت الآن غنيا تملك ألوف الألوف من الدراهم والدنانير ، إنك لعار على قريش ، لأنك إنما اكتسبت الثراء بالغناء وضرب العود ، فلا فرق بينك وبين المغنين والضاربين والزامرين من الموالى ! ..

فأقول لهم :

ـ وهل مس العار إبراهيم بن المهدى وقد اشتهر بالغناء وهو ابن خليفة وحفيد خليفة ... وأخو خليفتنا هارون الرشيد ؟ ! ...

فيقولون :

ـ وهل هو إلا ابن جارية سوداء كانت تسمى « شكلة » اشتهاها الخليفة محمد المهدى فولدت منه إبراهيم هذا ، فجاءت به نصفه من قريش ونصفه من

الزنج ! ...

إن حسد المغنين بعضهم لبعض لاينتهى ، وقد تعلمت ألا أبالى مايقولون ! ...

ولقد صرت غنيا بفضل الغناء وضرب العود كما يقول أولئك السفهاء ، ولكنى لم أنس ماتعلمته فى مكة ـ قبل سكناى بغداد ـ من الفقه والحديث واللغة والشعر ... ولم أهجر مادرجت عليه من العبادات ، برغم ما أنغمست فيه من صناعة الغناء وما أخذت به من عادات جديدة فى بغداد ، بعضها من أسوأ العادات ! ...

● **اليوم الثالث** :

خرجت فى بكرة الصباح أتجول فى طرقات بغداد ، وأفكر فى كلب أشتريه ، أضمه إلى مجموعة كلابى النادرة ...

فى مكة لم أكن أتصور أنى أشترى الكلاب وأقتنيها يوما من الأيام ! ...

أما الآن ، وأنا مغنى بغداد الأشهر ، فالكلاب الفارهة النادرة هوايتى ... ولها عندى اعزاز شديد ! ..

الناس يعيبوننى بهذا ... ويعيبوننى أيضا بلعب القمار ، ويقولون لى مشفقين أو هازئين ! ...

ـ لقد أنفقت فى الكلاب والقمار أكثر مما أنفقت بنو سهم كلها فى الطعام والشراب ! ..

فى بعض الطريق ، وثياب الخز والوشى تلتمع فى الضحى على جسدى ، سمعت فقيها كبيرا يتحدث عنى إلى جلسائه ويتحدثون عنى إليه ...

توقفت ناحية أسمعهم كأننى أنتظر شيئا ، فسمعت الفقيه يقول للقوم الجلوس :

ـ بلغنى أن هذا القرشى قد أصاب ثروة كبيرة من أموال الخلفاء والكبراء ، فبأى شىء أصابها ؟ !

قالوا :

ـ بالغناء ! ....

قال :

ـ فمن منكم يذكر بعض مايغنى فيه من الشعر ؟ !

قال أحدهم :

ـ إنه يغنى

وأصحب بالليل أهل الطواف
وأرفع من مئزرى المسبل

قال الفقيه :

ـ هذا كلام حسن ! ... هيه ... ثم ماذا ؟ ! ...

قال الرجل : ويغنى أيضا :

وأسجد بالليل حتى الصباح
واتلـــو من المحكـــم المنـــزل

قال الفقيه :

ـ وهذا أحسن ! ... هيه ! ...

قال الرجل

عسى فارج الكرب عن يوسف
يسخـــــر لـــى ربـــه المحمـــل

فأشاح الفقيه بوجهه مستنكرا وقال :

ـ أما هذا البيت الثالث ... فلا ! ...

تعجبت لهؤلاء القوم ، فلولا كثرة مايأخذه القمار وحب الكلاب منى ، لأذهلت ضخامة ثروتى هذا الفقيه والجالسين معه ! ... وإنه ليسأل من أين جاءتنى الثروة ، كأنه لايعيش فى بغداد ولايعرف شيئا عما يجرى فيها ، وكيف يعيش سادة بغداد لياليهم ، وكم من ألوف الجوارى والغلمان فى قصورهم ، وكم فى هذه القصور من بذخ يفوق الخيال ! ...

يتهامسون عنى فى غيظ : ألا يستحى هذا أن يغنى وهو رجل من قريش ؟ ! ... ثم لايتهامسون عن أبناء الخلفاء الذين يغنون ويفعلون مايشاءون

حتى الخليفة هارون الرشيد يريد أن ينتقصنى فيقول لى :

ـ أى بنى الانسان قومك يا اسماعيل ؟ !

فأكاد أموت غيظا ، فهو يعرف أنى من قريش أما وأبا ، وأنه هو من قريش أبا فقط ... وأمه الخيزران المجلوبة من سوق الرقيق ! ...

فأقول له :

ـ إن كنت تجهل نسبى فاسأل عنه إبراهيم الموصلى هذا الذى بجانبى ! ...

فيغضب الخليفة ويقول :

ـ قبحك الله شيخا من قريش ... كيف أسأل عن نسبك هذا الرجل وهو من العجم ؟ ! ...

● اليوم الرابع :

قاضى القضاة أبويوسف وقف معى اليوم على باب الوزير يحيى بن خالد البرمكى ، وحدثنى وحدثته ! ... أليس هذا عجيبا ؟ ! ...

إن أبا يوسف صاحب الامام أبى حنيفة ، رجل دين مشهور بالورع والأمانة ،

ولكن أمره عجيب ، فهو يتجاهل أو يدعى الجهل بأن هارون الرشيد يجلس للمغنين كما يجلس للعلماء والفقراء ... والأدباء والشعراء ...

ـ هل يعلم القاضى أبو يوسف أو يجهل دقائق حياة أمير المؤمنين ؟ ! ...

سؤال صريح ، لو أجاب عنه بصراحة ، لقلت : هذا القاضى هو صاحب أبى حنيفة حقا ... مع أن أبا حنيفة رفض أن يتولى القضاء لأبى جعفر المنصور جد الرشيد ... وضربه المنصور لارغامه على القبول ، فلم يقبل ... ومات جريحا سجينا ! ...

وأبو يوسف ـ وهو التقى الورع ـ يجوس خلال قصور الخليفة ويعلم أنها تحوى ألفى جارية ، عدا الغلمان والخصيان وصنوف الخدم من كل لون وشكل ...

ولكن صناعة الغناء هى وحدها حرام عنده بين جميع « الصناعات » التى تدخل هذه القصور ...

وقفت على باب الوزير يحيى بن خالد البرمكى ريثما يأذن لى وللناس بالدخول ، فجاءنى القاضى أبويوسف فقال لى ولم يكن يعرفنى :

ـ أمتع الله بك أيها الشيخ ... توسمت فيك الحجازية والقرشية ! ...

فقلت فى نفسى : « قد انخدع القاضى والله فى سمتى وحلاوة هيئتى وعمامتى السوداء على قلنسوتى الطويلة ، وما أخذ السجود الكثير من جبهتى ... فظننى من فقهاء الحجاز » !

ثم قلت للقاضى وأنا أتقمص وقار الفقيه :

ـ أصبت ... أنا حجازى قرشى ...

قال القاضى مبتهجا متلطفا

ـ فمن أى قريش أنت ؟ !

ـ من بنى سهم !

ـ فأى الحرمين الشريفين منزلك ؟

ـ مكة ...

ـ ومن لقيت من فقهائها ؟

ـ سل عمن أردت وعما شئت ...

ففاتحنى قاضى القضاة فى الفقه والحديث ، فوجد عندى مايحب فأعجب بى وارتاح إلى الوقوف بجانبى كأنه يستظل بحجازيتى وقرشيتى ، وهو الفقيه ذو الأصل العجمى ...

ونظر الناس إلينا فسمعت بعضهم يقول همسا : « أرأيتم القاضى قد أقبل يتحدث إلى المغنى ؟ ! » ..

فلما أذن لنا بالدخول إلى الوزير ، افترق عني وسمعت رجلا من أصحابه يقول له

ـ أتعرف هذا الذى واقفته وحادثته ؟ ! ..

قال القاضى :

ـ نعم ... رجل من قريش ... من أهل مكة ، من الفقهاء ! ...

قال الرجل :

ـ أصلح الله مولانا القاضى ... إنه ابن جامع المغنى ، وقد أنكر الناس ذلك من فعلك ! ...

قال القاضى آسفا نادما :

ـ إنا لله ! ...

وطفق يستغفر الله كأنه قارف أعظم الذنوب ! ...

● **اليوم الخامس :**

التقيت والقاضى مرة أخرى على باب الوزير البرمكى ، فلما بصر بى انحرف عنى ، فرفعت صوتى قائلا والناس يسمعون :

ـ يا أبا يوسف ... مالك تنحرف عنى ؟ ! ... أى شىء أنكرت ؟ ! ... أتراهم قالوا لك إنى ابن جامع المغنى فكرهت أن تقف إلى جانبى ؟ ! ... إنى أسألك عن شىء ثم أصنع ماشئت ...

ثم قلت له :

ـ يا أبا يوسف ... لو أن أعرابيا جلفا وقف بين يديك فأنشدك بجفاء وغلظة لسان :

يادار مية بالعلياء فالسند
أقوت وطال عليها سالف الأبد

أكنت ترى بذلك بأسا ، أو تحكم بأنه أنشدك كلاما حراما لايصح إنشاده ؟ ! ...

قال أبو يوسف :

ـ لا ... فقد سمع رسول الله الشعر من الشعراء وغيرهم .

قلت :

ـ فإن قلت أنا هكذا ! ... ثم اندفعت أغنى هذا البيت بأجمل صوت حتى رأيت الناس يتمايلون طربا إلا القاضى ، فقلت له :

ـ يا أبا يوسف ... أنت صاحب الفتيا ... وأنا مازدت هذا البيت على أن حسنته

بلحن جميل ، فوصل إلى القلوب .

قال لى أبو يوسف ضارعا يستعفينى من الكلام :

ـ عافاك الله ... أعفنا من ذلك ! ...

وفى سهرة الرشيد قصصت عليه القصة فضحك كثيرا ، وغنيته ومعه زوجته زبيدة التى قلما تجلس معه للسماع ، فأمرت لى زبيدة بأربعمائة ألف درهم ، فقال لها الرشيد :

ـ غلبتنا يابنت أبى الفضل ، وسبقتنا إلى بر ضيفنا وجليسنا ...

ثم جعل لها الرشيد مكان كل درهم أمرت لى به ، دينارا من الذهب ! ...

وفى تلك اللحظة خطر فى بالى مولانا قاضى القضاة ! ...

ذكريات البرامكة



● **اليوم الأول :**

دعانى القائد الكبير على بن هشام وهو صديق لى يحبنى ويحب فن الغناء .. الى الصبوح فى قصره مع عدد من كبار المغنين والندماء .. فعاقنى عن البكور اليه عائق قاطع ، فلم أستطع أن أوافيه الا ظهرا ، وكان ينبغى أن أكون فى مجلسه قبل طلوع الشمس ، فقال لى :

ـ أين كنت حتى هذه الساعة ياأبا محمد ؟

قلت :

ـ عاقنى أمر لم أجد من القيام به بدا ..

فوثب علويه الأعسر ـ وهو تلميذ ابى وتلميذى ولكنه شديد الحسد لى ـ فقال لعلى بن هشام وكأنه يداعبنى :

ـ أيها الأمير .. إن اسحاق الموصلى الذى يعتذر اليك بالعوائق ، ولايجىء اليك الا ظهرا ، كان فى الماضى سريع التلبية لدعوات البرامكة ، ولو دعوه فى منتصف الليل ! ..

قلت لعلويه

ـ كذبت يا أعسر .. وما أردت مداعبتى ، ولكنك تريد التحريض والدسيسة ! ..

فأراد علويه أن يشغب ويصيح ، فأسكته الأمير ابن هشام وأمره بالجلوس ، ودعا لى بطعام وشراب ، ثم أشار الى علويه فغنى

إلهى منحت الود منى بخيلة
وأنت على تغيير ذاك قدير
شفاء الهوى بث الهوى واشتكاؤه
وإن امرأ أخفى الهوى لصبور

فأخطأ علويه فى بعض أقسام اللحن ، فقلت له بعد أن فرغ منه :

ـ أخطأت ياعلويه .. ويلك !

فما رد على قولى ، ووضع عوده وشرب شيئا ، ثم تناول العود فغنى

ولقد أسمو الى غرف ... فى طريق موحش جدده
حوله الأحراس تحرسه ... ولديه جاثما أسده

فأخطأ فى غناء هذا اللحن أيضا ، فقلت له :

ـ أخطأت ياأعسر ثانية .. ويلك !

فوضع العود من يده وأقبل بوجهه ناحيتى محنقا :

ـ ياإسحاق !.. دعاك الأمير ـ أعزه الله ـ لتبكر اليه ، فجئته ظهرا ، وغنيت لحنين يشتهيهما الأمير ـ أعزه الله ـ فخطأتني فيهما ، وأنت تزعم أنك لاتغني الا بين يدي خليفة أو ولي عهد .. وقد كنت أراك تسرع الى البرامكة قديما فتغني منذ الصباح الى الليل !

قلت لعلويه :

ـ إني والله ما أردت إنتقاصا منك ولا أقول لغيرك ماقلته لك تقويما لصناعتك في الغناء وما أردت بذلك ازدراءك ، ولكني اردت تهذيبك لأنك منسوب الصواب والخطأ الى أبي الذي علمك الصناعة ، فإن كرهت مني ذلك تركته وقلت لك كلما سمعتك تغني أحسنت وأجملت ! ..

ثم أقبلت على الجلوس فقلت :

ـ أما البرامكة فقد ذهبوا ، ولكني لا أجحدهم حقهم ، فوالله لقد وجدني الوزير يحيى بن خالد البرمكي يوما لا أنشط للغناء ولاللمنادمة ، فقال لي : أراك مهموما ، كأنك مفتقر الى شيء .. ثم صاح :

ـ ياغلام .. دواة ورقعة وقلما ..

فوقع لي بمائتي الف درهم ! .. وكان في مجلسه أولاده الأربعة جعفر والفضل وموسى ومحمد ، فوقع لي جعفر بمائة وخمسين الف درهم ، ووقع لي الفضل بمثلها ، ووقع لي موسى ومحمد بمائة الف ، مائة الف ! .. فخرجت في ساعة واحدة من عندهم بسبعمائة الف درهم ، ووالله ماسألتهم أن يعطوني شيئا ، ولاغنيتهم لحنا ولافعلت شيئا الا الجلوس بين أيديهم صامتا في تلك الساعة .. ولا والله ما كان هذا بأكبر شيء فعلوه لي .. فهل يلومني منصف على شكر هؤلاء وقد ذهبوا ولم تبق الا ذكراهم ؟!

فبكى علي بن هشام وكل من حضر ، ومن بينهم علويه ، وقالوا

ـ لايرى الناس والله مثل البرامكة ابدا ...

وقام علويه فقبل رأسي وقال لي :

ـ أنت أستاذنا وابن أستاذنا ، وبنا الى تقويمك حاجة في كل وقت !

ثم جاءوني بعود ، فغنيت اللحنين اللذين أخطأ علويه في غنائهما ، وصححتهما له وبينتهما على وجههما حتى فهم علويه خطأه ، فقام يرقص ويصيح :

ـ والله لو غنى ابليس هذين اللحنين لعجز عن مثل اتقانك هذا ياإسحاق ! .. ياأستاذي وابن أستاذي

فضحك علي بن هشام وقال :

ـ صدقت والله ياعلويه ! . هكذا يقول من يعقل لاكما كنت تقول وتشغب من قبل على أستاذك اسحاق !

● **اليوم الثاني :**

في مجلس أمير المؤمنين المعتصم ، غنيت لحنا جديدا فطرب طربا

شديدا ، ثم تأملنى لحظة وقال لى

ـ ياأبا محمد .. لقد ضحك الشيب فى عارضيك !

قلت وقد فاجأنى الحزن على ذهاب شبابى

ـ نعم ياسيدى .. فإن سبعين سنة ليست بالزمن القصير ، وقد تخطيتها أسأل الله أن يمد فى عمر أمير المؤمنين !

ثم بكيت حتى اشتفيت ، وبكى المعتصم لبكائى ، وكان رقيقا على جبروته وكثرة حروبه !

ووجدتنى أمسك بالعود وأغنى

تولى شبابى الا قليلا
وحل المشيب فصبرا جميلا
كفى حزنا بفراق الصبا
وأن أصبح الشيب منه بديلا
سأندب عهدا مضى للصبا
وأبكى الشباب بكاء طويلا

فطرب المعتصم ، وظهر التأثر الشديد على وجهه ، وقال لى

ـ والله لو قدرت على رد شبابك بشطر ملكى لفعلت !

فلم يكن لكلامه عندى من جواب الا تقبيل البساط بين يديه ! ..

● اليوم الثالث

اجتمعنا عند الواثق ـ ولى عهد المعتصم الآن ـ أنا ومخارق وعلويه وغيرنا ، فأراد الواثق أن يؤلب مخارقا وعلويه ويغريهما بى ، ليتسلى ويضحك ! .. ففعل ذلك حتى تهاترنا وتبادلنا قوارص الكلم ، ثم قال لى الواثق :

ـ ماتقول يااسحاق فى مخارق ؟!

قلت :

ـ هو مناد طيب الصوت ، ولكنه يخرج بالألحان عن أصولها فتكثر أخطاؤه ..

ـ فما تقول فى علويه .. أهو أفضل أم مخارق ؟!

قلت :

ـ أيها الأمير قيل لأحد العرب : أى حماريك شر ؟!

فأجاب : هذا .. ثم هذا ! .. فعلويه هو خير الحمارين فى الغناء .. وهو على كل حال شيىء ـ أردت تصغيره ـ وخير منهما أبو حشيشة الطنبورى !

فوثب علويه مغضبا وقال للواثق :

ـ نسائى طوالق ، وجوارى حرائر ، لئن لم تستحلفه أن يصدق عما أسأله عنه ، لأتوبن عن الغناء ما عشت

فقال الواثق لعلويه

ـ لاتعربد ياعلويه .. نحن نفعل ماسألت

ثم حلفني الواثق أن أصدق عما يسألنى عنه علويه ، فحلفت ، فسألنى علويه

ـ من أحسن الناس اليوم صنعة فى التلحين بعدك ؟!

ـ أنت ياعلويه .

ـ فمن أطيب الناس صوتا بعد مخارق ؟

ـ أنت !

ـ فمن أبرعهم ضربا على العود بعد زلزل قديما وبعد ثقيف الآن ؟!

ـ أنت !

فصاح علويه وكأنه أنتصر

ـ هذا قولك ، فانا الثانى فى كل مجال من صناعة الغناء ، وأنا ثلاثة فى واحد ، وكل منكم واحد فقط لايتعدى مجاله فى الصناعة ، فمن يكون فى الدنيا مثلى من نظرائى فى صناعتى ؟!

ثم التفت علويه ناحيتى وقال معربدا

ـ وما أنت وصوتك هذا الذى ضعف حتى صار لاتسمعه الأذن انخفاضا ؟!

فأنتهره الواثق وقال له

ـ دع ذاعنك ، فلولا ماعلمك اسحاق وأبو اسحاق من هذه الصناعة أنت وغيرك ما كان فى بغداد أحد من المغنين

وغاظنى علويه ، فأخذت عودا فنقلت أوتاره من مواضعها حتى صارت مشوشة لاتصلح للضرب ، ثم قلت : ليغن من شاء منكم وأنا أضرب له على هذا العود الذى شوشت أوتاره ، فأدهشهم ذلك ، وغنى مخارق ، وضربت له ، فلم يظهر فى الضرب اثر لتشويش الأوتار ، ولافقد الايقاع شيئا ، ولااختل من اللحن أدنى شىء .. فعظم عجب الواثق من فعلى ، وقام على رجليه فقال :

ـ هذا والله مالايفعله الا السحرة ! .. ومارأيت مثله قط ، ولاظننت أن مثله يكون ابدا ..

فوثبت فرقصت طربا حتى تعبت ، فضحك الواثق وقال لى

ـ أنت والله أرقص من كبيش وعبد السلام ، وهما أرقص الناس فى بغداد الآن كما يقال !

ثم قال الواثق :

ـ لايكمل أحد فى صناعته كمثل كمال اسحاق ..

ثم التفت الى الجلوس ، وبينهم مخارق وعلويه فوصفنى وقرظنى وامتدحنى وقال

ـ والله ماذكرت من اسحاق شيئا يقارب وصفه ، فهو واحد فى دهره علما وفقها وأدبا ووقارا ووفاء وجودة رأى وصحة مودة .. لايمل جليسه مجلسه إن حدثك ألهاك ، وإن ناظرك أفادك ، وإن غناك أطربك .. والغناء فرع من

دوحته ، وأما أمثال مخارق وعلويه فالغناء هو كل شىء عندهم ، وهم بغير الغناء لايكونون شيئا !

فرأيت عندئذ مخارقا وعلويه ينكمشان وقد أنكسرا وانهزما وأوشك أن يقتل الحسد علويه خاصة !

● **اليوم الرابع** :

تولى الواثق الخلافة بعد أبيه المعتصم ..

الواثق يلحن ويغنى ويعتبر نفسه تلميذا لى فى هذه الصناعة ، وهو لطيف غير مغرور بجاهه وسلطانه العظيم ، واذا صنع لحنا عرضه علىّ ، لأصلحه له اذا كان فيه خطأ إلا أن ألحانه والله لاتقل جودة عن الحان مشاهير المغنين ، بل لعلها خير من الحانهم لأنه يصنعها هواية وتطربا ، لاصناعة وتكسبا ..

انحدرت مع الواثق وجمع من حاشيته الى مدينة « النجف »

قلت له : ياأمير المؤمنين .. قد قلت فى النجف قصيدة ، فقال : هاتها ، فأنشدته

ياراكب العيس لاتعجل بنا وقف
نحى دارا لسعدى ثم ننصرف

ثم أتيت على قولى

لم ينزل الناس فى سهل ولاجبل
أصفى هواء ولا أعذى من النجف
حفت ببر وبحر من جوانبها
فالبر فى طرف والبحر فى طرف
ومـايزال نـسيم من يمانيـة
يأتيك منـها بريـا روضـة أنف

فقال لى الواثق صدقت يااسحاق .. هى كذلك ! .. ثم مضيت أنشده حتى أتيت على قولى فى مدحه

لايحسب الجود يفنى ماله أبدا
ولايرى بذل مايحوى من السرف

ومضيت فى القصيدة حتى أتممتها فطرب ، وأمر لى بمائة ألف درهم ..

ثم انحدرنا الى « الصالحية » فمكثنا أياما فاشتقت الى أهلى فى بغداد ، فبكيت ، فبان التأثر فى وجهه ، واذن لى بالأنصراف الى بغداد وأمر لى بمائة ألف درهم .. فعدت من رحلتى هذه بمائتى الف درهم ! .. وماوصلنى أحد من الخلفاء قط بما يصلنى به الواثق فى كل حين ، على أن أباه المعتصم وعمه المأمون وجده الرشيد كانت الأموال تجرى بين أيديهم كالأنهار ، وأما هو فقد غيض بحر المال فى عهده الا قليلا ! ..

يوميات دنانير البرمكية :

غيــرة زبيــدة



● اليوم الأول :

تعود بى ذاكرتى الى السنين الخالية .. أيام كنت جارية مغنية فى قصر الوزير يحيى بن خالد البرمكى ، وزير الخليفة هارون الرشيد

كان الرشيد مشغوفا بغنائى ، لايرى لى شبيهة بين الجوارى المغنيات البارعات اللاتى يملك منهن العشرات ، وما منهن الا من تميزت بصوت حسن ، أو اداء متقن ، أو جمعت بين حسن الصوت واتقان الأداء الا اننى أملك من جمال الصوت وصنعة الغناء والضرب على العود ، والعلم بالشعر وفنون التلحين ، مالا تعلمه الجوارى .

أرانى أتحدث عن هذا الماضى كأننى أعيش فيه والحق أنى أعيش فيه بأحلامى ، خلال يقظتى ومنامى ، ولكنه انقضى منذ عهد أراه بعيدا وهو قريب ، وأنا الآن امرأة تعيسة أدبرت ايامها السعيدة ولم تبق لها من تلك الأيام الا مرارة الذكرى !

وها أنذا أقلب طرفى فى « يومياتى » القديمة ، عائدة اليها بأحلامى ، وإن صارت الآن مجرد كلمات قديمة على اوراق صفراء عبثت بها الأرضة وابتلعت منها كلمة من هنا وكلمة من هناك .. وإنما ابتلعت فى هذه الكلمات قطعا حية منى .

وآه من تلك اليوميات التى أكل الزمن كلماتها كما أكل كلمات حياتى ! ..

اليوم الثانى

اقرأ الآن حياتى من أولها ..

كنت جارية ليحيى البرمكى .. لم ير جارية مغنية أحسن منى وجها ولا أظرف ولا أكمل أدبا

سمعنى يحيى ثم اشترانى ، فقال لى

- يادنانير .. إن لك صوتا بارعا جدا ، وطبعا فى الغناء لم أر له مثيلا ، على كثرة من سمعت من المغنيات المدربات الحاذقات .. ولكن تنقصك الدربة على أيدى فحول هذه الصناعة ، فإنك متى أخذت عنهم أسرارها ، وتخرجت على أيديهم ، صرت واحدة زمانك فى الغناء ..

ثم دعا الوزير الى قصره كبار الملحنين والمغنين ليطارحونى الألحان ، فأخذت عن فليح بن ابى العوراء وهو أكبرهم سنا ، ثم عن اسماعيل بن جامع وهو أحسنهم صوتا ، ثم عن ابراهيم الموصلى وابنه اسحاق ، وهما أعظم أهل الأرض علما بصناعة الغناء ..

قال لى ابراهيم الموصلى يوما

- والله ماأرى فى غنائك نقصا يحتاج الى زيادة ، ولافى طبعك الا السلاسة والقوة ، كأنك زهرة عطرة نابتة بقوة فى أصل بذرتها ، لابرعاية بستانى يتعهدها ويسقيها ، فكيف كانت نشأتك فى هذا الفن يابنيتى ؟!

قلت

- كنت لرجل من أهل المدينة وأنا صبية صغيرة ، فخرجنى وأدبنى ، وأسمعنى غناء مطربى المدينة ، وما أكثرهم ، فأستجاب طبعى للغناء ، ورويت ماسمعته ، فلما رأى سيدى ذلك منى ، علم أننى صرت غالية الثمن ، فعرضنى على الوزير يحيى البرمكى فاشترانى فهذه والله نشأتى وقصتى !

قال لى الموصلى

- فإنى جئت اليوم أسمع لحنك الجديد

- وما هو ؟!

- هو الذى حدثنى عنه الوزير أعزه الله ، وقال لى إنك به معجبة ، وترين أنه لحن فائق لامطعن فيه ..

أدهشنى أن يهتم الوزير بألحانى حتى ليحدث عنها ابراهيم الموصلى ويدعوه الى سماعها منى ! ..

وأقبل الوزير فقال للموصلى

- ياابراهيم أسمعت اللحن من دنانير ؟!

قال الموصلى

- إنها تجس عودها لتبدأ ، ولكنك - أعزك الله - معجب بهذا اللحن الجديد ، وإعجابك به شهادة له لايحتاج معها الى شهادتى ، فإنك والله ثاقب الفطنة ، صحيح التمييز فى هذا الفن ، ولم أر لك مثيلا فى ذلك الا أمير المؤمنين الرشيد أبقاه الله وأعز نصره

أهتز الوزير يحيى لثناء الموصلى عليه وقال :

- يا أبا اسحاق لا أقول لك : أعجبنى هذا اللحن من دنانير ، ثم لايعجبك وأنت عندى رئيس صناعتك ، تعرف منها مالا أعرف ، بل مالايعرف الحذاق من أهلها .. وأنت تقف من دقائقها ولطائفها وأسرارها على ماخصصت به من بين الناس جميعا وإنما يتم سرورى بلحن دنانير اذا صادف منك استجادة وتصويبا .

ثم غنيت لحنى هذا وتحفظت فى أدائه على أحسن وجه ، حتى كدت أفتتن بغناء نفسى ، وغرنى مابلغته فى صناعة الألحان ! .. وكأننى كنت أضع مع أنفاسى دقات قلبى ، تدور بدمى فى هذين البيتين

نفسى أكنت عليك مدعيا

أم حين أرفع بَيْنُهُمْ خُنْتِ

ان كنـت مـولعـة بـذكـرهم
فعلـى فراقـهم ألا مُتَّ ؟!

حتى فرغت من اللحن ، فكأنما اكتملت لى فيه جهة كانت ناقصة فى وجدانى ، فضلا عن فنى ..

ورأيت الوزير والموصلى قد استخفهما الطرب ، حتى صاح الوزير والموصلى معا ·

ـ أعيديه ! ..

فأعدته .. ولم يزالا يستعيدان حتى قلت : قد جن الرجلان بما يسمعان منى !

فلما هدأ الوزير والملحن الكبير ، قال الوزير له :

ـ كيف رأيت صناعة هذا اللحن يا أبا أسحاق ؟! ..

قال الموصلى ولم تزايله بعد هزة طربه :

ـ انى طلبت أيها الوزير ـ أعزك الله ـ موضعا فى اللحن أصلحه وأغيره لتأخذه عنى دنانير ، فلا والله ما قدرت على ذلك ، وقد أعادته علينا ، فإذا هو كالذهب المصفى ، ليس فيه الا رونقه يزداد لمعانا ..

ثم خاطبنى الموصلى قائلا :

أحسنت والله يابنية وأصبت ، فأنت الآن سيدة المغنيات الضاربات الملحنات ، وإنك لتحسنين الاختيار ، وتجيدين الصنعة .. ووالله مايحسن كثير من حذاق المغنين مثل هذه الصنعة وأنت تتعلمين على أيديهم !

فضحك الوزير يحيى وقال للموصلى

ـ تأبى إلا أن تغمز ابن جامع ونظراءه من المغنين الذين تأخذ عنهم دنانير ، ولاتنسى نقارك معهم ابدا !

قال الموصلى

ـ لا والله ، لقد أعادت اللحن مرات ، وأنا أريد اعناتها لأفتح لنفسى مدخلا الى تعديل أو تصحيح فيه ، فلا والله ما وجدت الى ذلك سبيلا !

قال الوزير

ـ قد والله سررتنى ، وسأسرك !..

ثم وجه الوزير الى الموصلى بمال عظيم ! ..

● **اليوم الثالث :**

جاء الرشيد الى قصرنا خلسة ، لأن زوجته زبيدة تغار عليه منى ، وتشكوه الى كبراء بنى هاشم ، تقول لهم

ـ أمير المؤمنين ينتقل الى قصر وزيره لسماع جارية مغنية ؟ ؟

ألا تنصحونه ؟!

فلما ألح عليه كبار عمومته بالعتاب ، وقالوا له : فى قصرك من المغنيات اللاتى هن ملك يمينك فلانة وفلانة .. وعشرات أخريات ، فما يحملك على الخروج الى بيت الوزير لسماع تلك الجارية ؟!

قال لهم

- ليس لى فى هذه الجارية من أرب فى نفسها ، ولكن مأربى فى غنائها ، فاسمعوها ان شئتم ، فإن لها من جمال الصوت وكمال الصنعة ماليس لغيرها ، وقد شهد لها ابراهيم الموصلى الذى لايشهد لأحد من مغن أو مغنية ، ولو عرضوه على السيف ، إلا أن يراه مجيدا

وقد سمعنى هؤلاء العاذلون ، فعذروا الرشيد ، وعادوا الى زوجته زبيدة فأشاروا عليها إلا تلح فى غيرتها حتى قبلت منهم ذلك ، وقالت

- والله ماهى الغيرة ، والا ففى القصر ماتعلمون من عدد الجوارى اللاتى يملكهن ، ولكنى خشيت عليه من استدراج البرامكة اياه إلى بيوتهم ! ..

وارادت زبيدة أن تنفى تهمة الغيرة عن نفسها فأهدت الى الرشيد عشر جوار جديدات ، منهن : ماردة ، ومراجل ، وفاردة ! .. وقد ولدن له أولاده المعتصم ، والمأمون ، وصالحا .. وهم ينافسون ابن زبيدة محمدا الأمين ، فى التطلع الى الخلافة ..

● اليوم الرابع

صحوت اليوم من نومى وأنا جائعة أشد الجوع ، فدعوت بالطعام فى بكرة الصباح ، فدهش الخدم ، فلست شرهة ، وأكلت من طلوع الشمس الى ارتفاع الضحى فما شبعت ، والخدم يتعجبون ويتغامزون حتى جاء الوزير ، فقلت له انى اكل ولا أشبع ، فأدهشه الأمر ، وقام فاستدعى الطبيب ابن بختيشوع ، فلما فحص عن علتى ، انتحى بالوزير ناحية ، وسمعته يقول له متوجعا لما أصابنى من سعار الجوع

- قد أصابتها العلة الكلبية ! ..

فذعر الوزير وسأله :

- وما العة الكلبية ؟! ..

- تأكل ولاتشبع ولاتصبر عن الأكل ساعة واحدة ! ..

- وما علاجها ؟!

- اختلف الأطباء فيه ، ولكنى سأشرع فى علاجها متحرزا من الخطأ .. والله المستعان ! ..

فرأيت الوزير كأنه يوشك ان يبكى حزنا ، وأنصرف الطبيب للبحث عن دواء !

● **اليوم الخامس**

تناقصت حدة الجوع الذى أشعر به ، ولعل ذلك من أثر دواء الطبيب الذى اتعاطاه كل يوم مرات ، قبل الأكل وبعده

ولعل ذلك من أثر الصدقات الكبيرة التى يتصدق بها الوزير ، فقد أظلنا شهر رمضان المبارك ، ولم استطع صومه ، فأخذ الوزير يتصدق عنى فى كل يوم من أيام الشهر المبارك بألف دينار ، وفى الصدقة بركة لاشك فيها !

زارنى الرشيد حين سمع بعلتى ، فرأيته مكتئبا من أجلى ، وأخرج من صندوق صغير يحمله بعض خدمه ، عقدا من الجوهر قيمته ثلاثون ألف دينار ، فأعطانيه ، وهو يبتسم لى مشجعا !

أنقضى شهر رمضان ، فشعرت كأننى شفيت من العلة الكلبية تماما . فأخذت أنفض الغبار عن عودى ، فقد شاقنى الغناء كثيرا

ولكنى لم أجد من الوزير اقبالا ، ورأيته اليوم مجتمعا وابنيه جعفرا والفضل . يتهامسون ، وقد ركبهم الهم والكرب فعجبت لذلك ، فلما انصرف جعفر والفضل قلت للوزير يحيى

ـ ياسيدى .. أى شىء أهمكم وطرأ على أحوالكم ؟!

لم يجب الوزير ..

والتفتنا فإذا بمسرور خادم الرشيد يدخل القصر ويدعو يحيى لمقابلة الرشيد مع ابنيه جعفر والفضل

انتظرت عودته ساعات طوالا ، حتى سمعت ضجة حول القصر ، واذا عسكر الرشيد يدخلون ويصادرون كل مافى القصر ، حتى العقد الذى وهبه لى الرشيد وقال العسكر : إن أمير المؤمنين قد نكب البرامكة جميعا وقتل جعفر بن يحيى وحبس اباه وأخاه !

● **اليوم السادس** :

دعانى الرشيد الى الغناء فى قصره ، فلما جلست بين يديه قلت له

ـ ياأمير المؤمنين .. إنى آليت الا أغنى بعد سيدى ابدا !

غضب الرشيد وأمر بصفعى ، فصفعنى الخدم ، وأقامونى على رجلى ، وأعطونى العود ، فأخذته وأنا أبكى أحر بكاء وغنيت مع ذلك متحفظة فى غنائى ، قائمة بأصول الصناعة :

يادار سلمى بنازح السَّنَد

بين الثنايا ومسقط اللبد

لمارأيتُ الديار قد دَرَستْ

أيقنت أن النعيم لم يَعُدِ

رق لى الرشيد وأمر باطلاقى !

انصرفت الى البيت الذى أسكن فيه ، فجاء ابراهيم بن المهدى أخو الرشيد ، وهو من أجمل الناس صوتا ، فقال لى مواسيا يتحزن لمصابى

ـ قد والله أبكيتنى بما غنيت ، ولكن اضطرابك من الحزن لم يذهب بشىء من جمال صوتك وصناعتك ، فقد رأيتك تَخْتِلِينَ اللحن برفق ، وتقهرينه بحذق ! .. فلله أنت .. ما أكرمك وأنبلك !

وأراد أن يعطينى بعض المال فأبيت ، وانصرف والدمع فى عينيه !

زارنى المطرب « عقيد » وهو من موالى الأمير صالح بن الرشيد ، ويحبنى من قديم ، وكان ينتظر ان أتحرر من الرق ليتزوجنى ، فلما تحررت بعد نكبة البرامكة ، جاء يخطبنى ، فرددته برفق ، وأقمت على الوفاء لمولاى ! ..

وتعود بى ذاكرتى الآن الى السنين الخالية .. أيام يحيى وجعفر ، والرشيد ، وغيرة زوجته زبيدة .. ومطارحات الموصلى الألحان ! ..

يوميات دنانير الكناسية :

جارية الرجل الصالح



سيدى الذى اشترانى اسمه محمد بن كناسة .. رجل عربى النسب ، كوفى المولد والمنشأ .. صالح السيرة ، ذو مروءة وأدب وعلم ، وله شعر جيد ، ولكنه لايقصد بشعره ذوى السلطان والثراء ليمدحهم كما يفعل غيره من أهل الأدب والعلم ! .. سمعت مرة أحد أصدقائه يقول له

ـ عجبت لك ياأبا يحيى فى قعودك عن باب السلطان ، ورفضك انتجاع الكبراء والعظماء بأدبك وعلمك وشعرك ، كما يفعل كل من له فضلة أدب أو علم أو شعر فى هذه الدولة العباسية التى راجت فيها سوق أناس هم دونك علما وأدبا ، وإنك لمن رواة الحديث الشريف ، وقد أخذت عن الثقات من المحدثين ، ورأيت الأعمش الفقية الكبير ، وهشام بن عروة بن الزبير ، وسفيان الثورى ، وهم فى العلم جبال شامخة ! ..

فقال له محمد بن كناسة

ـ أصون عرضى عن الوقوف على أبواب السلطان ، ولا أطلب الرفعة بإغماض العينين ، ولا أجرح وجهى بالمطامع ! ..

ثم ارتجل :

معاشى دوين القوت والعرض وافر
وَبَطْنِىَ عن جدوى اللئام خَمِيصُ
سألقى المنايا لم أخالط دنية
ولم تسر بِى فى المخزيات قلوص

فلما خرج صاحبه هذا ، دخل شيخ الملحنين والمغنين اسحاق الموصلى ، فهش له سيدى ، وقال له :

ـ تغنيك جاريتنا أم تغنينا أنت متفضلا يا أبا محمد ؟! ..

قال اسحاق :

ـ لولا وجع فى حلقى من أثر البرد لغنيتك متشرفا بالغناء بين يديك ! .

فنادانى سيدى

ـ يادنانير .. هذا أبو محمد اسحاق الموصلى أعزه الله .. هاتى عودك فأسمعينا مما تحفظين من ألحانه ! ..

فلما غنيتهما طربا .. وقال له اسحاق :

ـ ياأبا يحيى .. أراك تنقبض عن الناس ولاتمازحهم ولاتكثر من التحدث إليهم ، ولكنك تخصنى بالاقبال والمودة والمداعبة واللطف والتواضع ، فجزاك الله عنى خيرا ، ونفعنى بعلمك وأدبك وجعلنى فداءك ! ..

فصمت محمد بن كناسة قليلا ثم أجابه ببيتين ارتجلهما فرأيت اسحاق الموصلى يتمايل طربا للبيتين ، ومارأيته والله يطرب لغناء أحد طربه لهذين البيتين .

ثم قال سيدى لاسحاق الموصلى

ـ ياأبا محمد .. إن فى علمك وأدبك وعفافك وظرفك مايجعلنا نرسل أنفسنا على سجيتنا معك ، فى حين ننقبض عن كثيرين من الناس ، وإن كان الفضل لك علينا فى كل حال ! ..

● اليوم الثانى :

سمعت بعضهم يقول لسيدى ابن كناسة :

ـ أنت امرؤ صالح ، يقصدك العلماء ، فما حظك من جاريتك دنانير المغنية هذه التى يسمعها عندك أصحابك ممن ترضى أخلاقهم وتثق بحسن ذوقهم فى السماع ؟! ..

قال له سيدى

ـ قد أجبت بنفسك عن سؤالك ! .. فإنما أسمع غناءها ويسمعونه معى ، على غير فاحشة ، وهى ملك يمينى ، أشتريتها بمالى ، ولى فيها غنى عن سماع غيرها فى بيوت الناس ، وهى بارعة فى صناعة الغناء ، وحسبك أن اسحاق الموصلى قد شهد بذلك ! .. ولها إلى ذلك أدب وذكاء وعفاف ..

ثمة سر يخفيه هذا الشيخ الطيب عن أصحابه ، فهو لايجب زوجته التى بنى بها منذ ثلاثين سنة ، فثقل عليه مكانها فى بيته ، لسوء عشرتها ، وحدة لسانها ، ثم جعلت لنفسها ركنا فى البيت ، وجعل لنفسه ركنا آخر .. وما أظنه اشترانى لغنائى فحسب ، بل لأكون أنيسة له أيضا فى هذا البيت الموحش ..

صحبته أمس فى زيارة بعض أقاربه فمررنا فى طريق بغداد برجل مصلوب على جذع شجرة ، يقول الناس إنه من المفسدين فى الأرض .. فنظر إليه ابن كناسة لحظة ، وحوقل ، ولم يتذكر وهو يرى هذا المنظر المرعب إلا زوجته التى تركها فى البيت ولم يقل لها وهو خارج بى إلى أين نحن ذاهبان ! .. فقال مرتجلا وقد أنزل عينيه عن الرجل المصلوب وأغمضهما كأنه يستجمع صورة تلك المرأة :

أيا جذع مصلوب أتى دون صلبه

ثلاثون حولا كاملا .. هل تبادل ؟

فما أنت بالحمل الذى قد حملته
بأضجر منى بالذى أنا حامل !

فحزنت والله من أجل الشيخ ، لأنه يرى أن الرجل المصلوب أخف وزنا على الجذع الذى يحمله ، من وزن امرأته هو التى حملها على قلبه مكرها ثلاثين سنة !

مع ذلك فالشيخ من أبر الناس بعياله ، وقد رأيته منذ أيام يحمل إليهم بيديه بطن شاة من عند الجزار ، فقلت له هات أحمله عنك ! .. قال

لاينقص الكامل من كماله
ماجر من نفع إلى عياله

● اليوم الثالث :

يعجبنى فى سيدى ابن كناسة ، فوق علمه وتقواه وطربه لغنائى ، أنه يثق بفهمى وعلمى وسرعة فطنتى ..

كنت أمس أجلس خلف ستارة فى بيته ، وهو جالس إلى أصدقاء له من الأدباء والعلماء .. فذكرنى أحدهم فأثنى على غنائى وضربى بالعود ، وهو لايعلم أننى جالسة وراء الستارة ..

فقال ابن كناسة لأصحابه :

ـ إن الغناء هو أقل فضائلها على براعتها فيه .. ولو شئتم لاختبرت لكم فهمها وعلمها الساعة ..

ثم أخذ قلما وكتب رقعة ، ونادى خادمة فأمرها بإيصالها لى ، فقرأت فيها « يادنانير .. إنك أَمَةٌ ضعيفة لكعاء فإذا جاءك كتابى هذا فعجلى بجوابى .. والسلام » ! ..

فلما تأملت كلامه علمت أنه لايريد أن يقول شيئا ، وأنه إنما يختبر فطنتى فى الوقوف على معانى الكلام وإدراك مراميه .. وكلامه هذا لامعنى له ولامرمى ! ..

فكتبت إليه : « ياسيدى ساءنى تهجينك إياى .. وإن من أعيا العى ، الجواب عما لاجواب له ! .. والسلام » ! ..

فلما بلغته رقعتى قرأها على صحبه وقال لهم :

ـ أرأيتم كيف فطنت الجارية إلى أننى إنما كتبت إليها ثرثرة لامعنى لها ؟! ..

قال القوم :

ـ والله .. إن دنانير جاريتك هذه لأعظم قدرا من دنانير جارية البرامكة ! ..

قال سيدى :

- صدقتم والله .. فإنى سمعت غناء دنانير البرمكية مرة ، فوالله مارأيتها تعدل فى الغناء دنانير جاريتى .. أما الأدب والذكاء والكمال فليس لجاريتنا فيها مثيل فما رأينا ولاسمعنا أفضل منها ! ..

● اليوم الرابع :

زوارنا اليوم كثيرون .. جاءنا واحد من العلماء النبهاء فذاكره سيدى فى شىء من الأدب والعلم ، حتى قال له الرجل :

- ياأبا يحيى .. والله إنى لأستحسن أبياتك التى أولها : « ومن عجب الدنيا » .. وأريد أن أكتبها فلاتضيع منى فهلا أنشدتنيها ؟ .. فأنشده سيدى هذه الأبيات

ومن عجب الدنيا تُبقِّيكَ لِلْبِلَى
وانــك فيهـا للبقـاء مُرِيدُ
وأى بـنى الأيام إلا وعنـده
من الدهر ذنب طارف وتليد
ومن يأمن الأيام .. أما انبياعها
فَخَطْـرٌ وأما فَجْعُهَـا فعتيد
إذا اعتادت النفس الرضاع من الهوى
فإن فطام النفس عنه شديد

فلما كتب الرجل الأبيات وانصرف ، قلت لسيدى

- ماهو « الانبياع » ؟ .. وماهو « الخطر » ؟ .. بسكون الطاء - فى البيت الثالث من هذه الأبيات ؟!

أجاب

- الانبياع هو الوثوب بعد السكون ! .. تكون الدنيا ساكنة هادئة فينخدع بها المرء حتى تثب عليه وثبا فتقتله أو تسلبه عافيته أو تهتك ستره .. وأما الخطر ، فهو ضرب البعير الهائج بذيله يمينا وشمالا .. أردت تشبيه الدنيا حين تهيج على صاحبها بهذا البعير حين يهيج على صاحبه ! ..

ثم قال لى :

- يادنانير ! إياى تخدعين ؟! .. أترين أنى لا أدرى معرفتك بهذا الكلام كله ؟! .. وإنما أردت أن تسلينى وترفهى عنى ، وتعرفينى أنك معجبة بشعرى ! ..

قلت له :

- والله ياسيدى إنك لمن أشعر الناس ، وانى سمعت اسحاق الموصلى يوما يقول لك وقد سمع بيتين من شعرك فاهتز لهما إعجابا :

ـ ياأبا يحيى .. وددت أنه نقص من عمرى سنتان وأنى كنت سبقتك إلى هذين البيتين ! ..

فأطرق ابن كناسة لحظة ثم سألنى

ـ قد نسيت ذلك ، فما هما البيتان ؟!

قلت

ـ بيتاك ياسيدى اللذان تقول فى أول شطر منهما : « فىًّ انقباض وحشمة .. » !

فابتسم ابن كناسة سرورا وقال :

ـ لله درك يادنانير .. قد أذكرتنى من نسيان ، وشوقتنى والله إلى اسحاق الموصلى ! ..

واندفعت ، حين ذكر اسم الموصلى ، فغنيته البيتين :

فىًّ انقباض وحشمة فإذا
صادفت أهل الوفاء والكرم
أرسلت نفسى على سجيتها
وقلت ماقلت غير محتشم

فطرب لغنائى طربا ماعهدته من قبل ، ثم بكى وقال

ـ قد كبرت سنى ، وضعفت عن مواصلة إخوانى بالزيارة ، ولولا ذلك لقمت الساعة فركبت إلى الموصلى .. ثم أنشد

ضعفت عن الاخوان حتى جفوتهم
على غير زهد فى الوفاء ولا الود
ولكن أيامى تَخَرَّمْنَ مُنَّتِى
فما أبلغ الحاجات إلا على جهد

وسمعنا طرقا على الباب فإذا بصديق لابن كناسة جاء يزوره فرحب به ، وأخذا يتجاذبان الحديث ..

صديقه هذا رجل كثير المزاح ، لكنه تقى عفيف ، يدخل إلينا فيسمع غنائى ، ويلمح لى بهواه فلا أجيبه بشىء .. ولكنه اليوم أكثر من التلميح فى سياق مزاحه ، فغنيت :

يا فؤادى فازدجر عنه ويا
عبث الحب به فاقعد وقم
صائد تأمنه غزلانه
مثلما تأمن غزلان الحرم

ففهم الرجل ما أعنى ، وفهم ابن كناسة كذلك ، ومازالا يطربان على غنائى ولايشربان كما اعتاد جميع الناس أن يفعلوا حتى قام الرجل يستأذن فى الانصراف ..

لم يكد الرجل ينصرف حتى أقبل صديق آخر من أصدقاء ابن كناسة يتعاطى العلم ، وكان يكتب الحديث ويتفقه ويتتلمذ على « ابن كناسة » ويظهر فى حضرته أدبا ونسكا .. ثم اطلع منه ابن كناسة على باطن ردىء يخالف ظاهره الحسن ، فلم يعد يطيق مجالسته لتناقض ظاهره وباطنه ، وتكذيب أعماله لأقواله ..

فلما جلسا لم يفاتحه ابن كناسة فى شعر ولا أدب ولاحديث ولافقه ، واكتفى بإنشاده هذه الأبيات

مامن روى أدبا فلم يعمل به
ويكف عن دفع الهوى .. بأديب
حـتى يكون بما تعلمً عامـلا
مـن صـالح فيكون غير معيب
ولقلما يغنى إصـابـة قائـل
أفعالـه أفعال غـير مصـيب

ففهم الرجل ما يعنيه ابن كناسة ، وقام يعتذر إليه ويحلف أنه قد تاب وأناب .. ثم انصرف ! ..

● اليوم الخامس :

« هذا اليوم لم تكتبه دنانير ، وإنما كتبه سيدها محمد بن كناسة .. قال » :

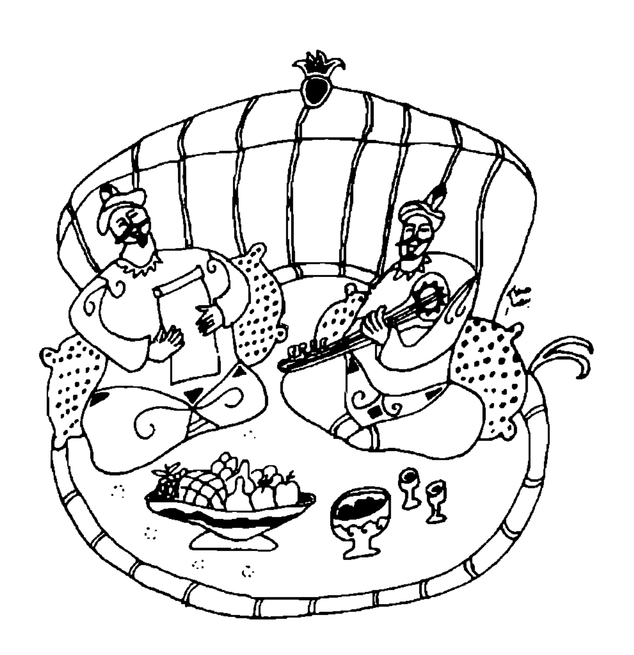
ـ ماتت جاريتى دنانير المغنية الأديبة العفيفة التى كانت أنس حياتى ! .. يرحمها الله ! .. ويعجل بى بعدها إلى رحمته ! ..

أفحمنى موتها وجاء الناس يعزوننى ، إلا امرأتى فإنى أحسست حركتها فى البيت ، كأنها امتلأت مرحا ونشاطا .. فقلت أرثى دنانير :

الحـمـد لله لاشـريـك لـه
ياليت ماكان منك لـم يكن
إن يكن القول قَلَّ فيك فما
أفحمنى غير شدة الحَزَنِ !

يوميات مُخَارِق

هدية الموصلى إلى البرامكة



● اليوم الأول :

نشأتى كانت متواضعة فقيرة ، لا أمل فى تغييرها وكيف يتسنى تغييرها وأبى جزار فقير ، من أفقر الجزارين بالكوفة ، لم يكن يملك محل جزارته ، ولا الذبائح التى فيه ، لأنه هو نفسه كان عبدا مملوكا ، اجتلبه سيده من سوق الرقيق وكلفه أن يذبح الخراف والثيران والجمال ويبيعها لأهل الكوفة ! ..

ومن لحظة ميلادى صرت مملوكا مثل أبى للرجل صاحب المال والجاه الذى يمت بالنسب إلى حاكم الكوفة ! ..

كبرت قليلا فصرت أساعد أبى المسكين فى عمله ، حتى بلغت بضع عشرة سنة من عمرى ، فاكتشفت كما اكتشف الناس أن لى صوتا فائق الجمال .. كان أبى يأمرنى أن أنادى على مايبيعه من اللحوم ، فأرفع صوتى وأنادى وأترنم وأتصرف فى المناداة حتى اعتاد الناس أن يجتمعوا كل يوم عند دكان اللحوم ليسمعوا صوتى ! بعضهم يشترى اللحم محبة فى سماعى ! .. وبعضهم يسمع ولايشترى ! ..

علم سيدى بجمال صوتى فأخذنى إلى مغنية بارعة فى الكوفة وطلب إليها أن تعلمنى الغناء وضرب العود ، فلما سمعت المرأة صوتى هالها جماله فاشترتنى من سيدى ، وثابرت على تعليمى حتى أخذت عنها كل ماتعرفه من صناعة الغناء وضرب العود ، ولم يكن كثيرا

ذات يوم ألبستنى المرأة ثيابا جديدة وسافرت بى إلى بغداد ، فعرضتنى على نخاس يبيع المغنين والمغنيات .. قال لها : اذهبى به إلى ابراهيم الموصلى ، فإن كان له صوت جميل حقا فسيشتريه منك ! ..

سمعنى ابراهيم الموصلى ، ثم قال للمرأة :

ـ كم درهما تأملين من بيع هذا الغلام ؟! ..

قالت مغالية فى الثمن :

ـ عشرة آلاف درهم !

قال الموصلى ضاحكا :

ـ قد أخذته بها ، وهو خير منها ! ..

ندمت المرأة ، واستعطفت الموصلى أن يعفيها من البيع بهذا الثمن « البخس » وقالت فى إصرار :

ـ لا أبيعه إلا بعشرين ألف درهم ! ..

قال الموصلى ساخرا

- قد أخذته بها   وهو خير منها !

صرخت المرأة :

- أقلنى .. أقالك الله من كل عثرة خذه بثلاثين ألف درهم لا أمتنع بعدها من بيعه لك ! ..

غاظها الموصلى قائلا بلا مبالاة :

- قد اشتريته بثلاثين ألف درهم ، وهو خير منها !

ارتسم الغيظ فى وجه المرأة ولكنها صفقت على يد ابراهيم وبايعته ، وأعطاها ثلاثين ألفا ، ثم زادها ثلاثة آلاف درهم وقال لها : هذه تكون لهدية تهدينها ، أو كسوة تكتسينها ، ولاتثلمين المال ! .

فرحت المرأة بهذه الآلاف الثلاثة أكثر من فرحتها بالثلاثين ألفا .. وعرفت أنا منذئذ أن ابراهيم الموصلى إنسان طيب كريم ..

● اليوم الثانى :

تعلمت كثيرا من أمور الفن وأمور الدنيا منذ صرت مملوكا لابراهيم الموصلى وعرفت أن ماتعلمته عند سيدتى الكوفية من الغناء ، لايزيد على قطرة من بحر هذه الصناعة الكبرى .. ووجدت الموصلى بحرا فى هذه الصناعة لاساحل له ، فاغترفت منه ماشئت من لؤلؤ لامثيل له عند أحد غيره من عظماء هذه الصناعة ..

أخذنى سيدى إلى الوزير الفضل بن يحيى البرمكى فسمعنى ثم سأل سيدى أن يبيعنى إياه ، فقال سيدى بصدق وكبرياء :

- أبيعه بثلاثة وثلاثين ألف دينار ، وقد أشتريته بثلاثة وثلاثين ألف درهم ! ..

امتنع الفضل بن يحيى من شرائى بهذا المبلغ ، كأنه استكثره ، فغضب الموصلى وقال له :

- فأنا أهبه لك أيها الوزير ولا أقبل أقل من ثمنه ! ..

قال الوزير من فوره :

- قد قبلته ! ..

هكذا صرت غلاما للوزير ، وغاظنى أنه ساوم فى ثمنى ولم يعرف قيمتى ، مع أن الموصلى قال له وهو يحاوره :

- أيها الوزير .. هذا الغلام لم يكن لأحد فى الدنيا صوت كصوته ، ولايكون أبدا

● اليوم الثالث

في سهرة الرشيد ، كانت أخبارى قد وصلت .. قال الرشيد لابراهيم الموصلى

ـ يا ابراهيم .. ماغلام بلغنى أنك وهبته للفضل ؟! ..

قال الموصلى :

ـ غلام يا أمير المؤمنين ، لم تملك العرب ولا العجم مثله صوتا ، ولايكون مثله أبدا

سأله الرشيد

ـ كم يساوى ؟! ..

أجاب الموصلى فى حماسة وانفعال

ـ يساوى خراج مصر وضياعها ! ..

دهش الرشيد وقال للموصلى :

ـ ويلك ! .. أتدرى ماتقول ؟! .. مبلغ هذا المال جسيم جدا ! ..

فثبت الموصلى فى موقفه ، ولم يهدىء من حماسته ، وقال :

ـ ومايكون هذا المال فى صوت لم يملك أحد مثله قط ؟! ..

أخذنى الرشيد من الفضل بن يحيى ، ووقفت لأول مرة أغنى بين يديه ، كما يغنى الغلمان المبتدئون ، أما المطربون الكبار فيغنون جالسين ..

سمع غنائى فطرب حتى كاد يطير فرحا ، وقال لى :

ـ يا مخارق .. إجلس مع أصحابك ، فقد تجاوزت مرتبة من يغنى واقفا ! ..

ووصلنى بثلاثة آلاف دينار ، وهى صلة يطمع فى مثلها كبار المطربين الذين يغنون بين يديه منذ عشر سنوات أو أكثر !

● اليوم الرابع :

غنيت الرشيد :

ياربع سلمى لقد هيجت لى طربا
زدت الفؤاد على عـلاته وصبا
ربـع تبـدل ممن كـان يسكنه
عفر الظباء وظلمانا به عُصَبَا

فبكى الرشيد ، وقال لى

- أحسنت يامخارق ، فسلنى حاجتك ! ..

فانطلقت أقول كأنى أخشى فوات الفرصة :

- حاجتى أن تعتقنى يا أمير المؤمنين أعتقك الله من النار ! ..

- أنت حر لوجه الله ! .. فأعد الصوت ..

فأعدته فبكى وشرب رطلا ثم قال :

- أحسنت يامخارق فسلنى حاجتك ! ..

قلت

- ضيعة أنتفع بغلتها .. ومنزل وفرش وخدم ! ..

فأمر لى بكل ذلك ! .. ثم استدعى قائد جيشه هرثمة بن أعين ، فدخل إليه وهو يجر سيفه الثقيل ، فقال له الرشيد :

- ياهرثمة .. أتتذكر مخارقا الخارجى الذى قتلناه بناحية الموصل ؟! .. ماكانت كنيته ؟! ..

قال هرثمة كأنه يقرأ من كتاب :

- كنيته « أبو المهنأ » ..

قال له الرشيد :

- انصرف ! ..

انصرف هرثمة ، لكونه من رجال الحرب ، فهو ممنوع من حضور مجالس الغناء فى حضرة الخليفة .. وقال لى الرشيد :

- قد كنيتك أبا المهنأ لاحسانك ، وأمرت لك بمائة ألف درهم ! ..

● اليوم الخامس :

طرق باب بيتى الشاعر أبو العتاهية الذى نسك وزهد فى الدنيا كما يزعم ، مع أن بيته مشحون بالأموال التى كسبها من العطايا ولم ينفق منها إلا دراهم معدودة ! ..

قال لى ابو العتاهية وهو يتربع جالسا :

- يا أحسن من غنى فى هذا الاقليم ! .. ياحكيم أرض بابل ! ..

أصبب فى أذنى شيئا من غنائك يفرح به قلبى ، وتنعم به نفسى ! ..

غنيته فجعل يبكى بحرقة ، ويكاد يمشى على وجهه طربا .. ثم قال لى :

- يادواء المجانين ، لقد رق صوتك حتى كدت أحسوه ، فلو كان غناؤك شرابا لكان

ماء الحياة ! ..

لم يكد أبو العتاهية ينصرف حتى خطر لى أنه سيموت وأنى لن أراه بعد هذه الساعة ، فصرت إلى داره فوجدته قد خلع ملابسه وجلس عاريا فى أناء اسطوانى من الفخار يظهر صدره من أعلاه ، ويظهر من أسفله ساقاه إلى ركبتيه ، وسائر جسده عار داخل الاسطوانة ..

أذهلنى منظره ، ثم انفجرت ضاحكا من هذا الرجل الملتاث ، وقلت له :

ـ ويحك يا أبا العتاهية ! .. ماهذا الذى صنعته بنفسك ؟!

بكى وقال :

ـ هذا والله مقدار حاجة الحى من الدنيا ، ولكن حاجة من عاش لاتنقضى ! ..

قلت

ـ أفتستغنى بهذا عن كل لباس على جسمك ؟! .. فإن الله لم يأمر بذلك ، وإنك لتعلم أن المتقين يلبسون الحرير فى الجنة ، فليس العرى من الدين فى الدنيا ولا فى الآخرة ! ..

خجل أبو العتاهية وسألنى أن أنتظره حتى يرتدى ملابسه فى إحدى الحجرات ..

فلما ارتداها جلسنا وأمر بطعام وشراب فطعمت قليلا ، وشربت أقل من القليل ، وتولى هو ابتلاع « المائدة » كلها طعاما وشرابا .. ثم قال لى :

سيعرض عن ذكرى وتنسى مودتى
ويحدث بعدى للخليل خليل
إذا ماانقضت عنى من الدهر مدتى
فإن غَنَاء الباكيات قليل

غنيته فى شعره هذا فبكى حتى اخضلت لحيته ، وقال لى :

ـ إذا حانت مدتى ودعاك أهلى إلى رؤيتى فلاتتأخر عنى ، واصبب فى أذنى هذين البيتين قبل أن أسلم الروح ! ..

تأثرت من حال هذا الرجل الذى صار فى شيخوخته خليطا من الضعف والعته وحب الدنيا وكراهية الناس والرغبة فى الموت والخوف منه ! ..

● اليوم السادس :

عشت حتى الآن سبعين عاما ومازال صوتى أجمل صوت سمعه الناس من عصر الرشيد إلى عصر حفيده المتوكل على الله .. وأنا صحيح معافى ، لكنى أشعر بأن دنياى قد انتهت ! .. لقد تغيرت دنياى ودنيا الناس من عهد الرشيد إلى عهد

المتوكل .. أكثر من خمسين عاما ، غنيت فيها لستة خلفاء ولمئات الأمراء والوزراء والكتاب وغيرهم ! .. وعشت كما يعيش أغنى أغنياء بغداد ، بعد أن بدأت حياتى فى الكوفة أنادى على اللحوم فى دكان جزارة سيدى وسيد والدى الذى باعنى ، فانتقلت منه إلى السيدة التى باعتنى .. إلى الموصلى .. إلى الوزير البرمكى .. إلى الخليفة الرشيد .. إلى أن صرت المطرب الأول فى بغداد ، وكسبت ما لو أردت أن أشترى به مائة ألف دكان للجزارة لفعلت ! ..

أنا لا أحب اللحم ، وبالأمس قال لى ضارب رمل إننى سأموت قريبا مسموما من أكل قنبيطية باردة ! .. وحذرنى الرجل من أكل كل طعام بارد ! ..

الحياة نفسها صارت باردة كالشتاء ، فلتجىء النهاية كما تشاء .. حارة ، أو باردة ! ..

بين الغنـــاء والتسليـــة



● اليوم الأول

● مازلت أذكر والدتى ـ رحمها الله ـ كانت من أحسن النساء وجها ، ولا مثيل لها فى جودة الغناء .. حدثتنى كثيرا عن جارية زميلة لها تسمى «بصبص» .. كانتا معا فى «المدينة» .. ثم بيعت والدتى إلى والدى المهدى ـ رحمه الله ـ وبقيت «بصبص» فى المدينة تغنى لأهلها ..

كانت والدتى تسمى «مكنونة المروانية» .. وليست من آل مروان بن الحكم ، وقد غلبت بجمالها وغنائها على أبى ـ رحمه الله ـ حتى كانت زوجته الخيزران والدة هارون الرشيد وموسى الهادى تقول : ما ملك المهدى جارية أغلظ على قلبى من مكنونة المروانية ! ..

من والدتى تعلمت الغناء ، وكانت زميلتها «شكلة» جارية أبى ووالدة أخى ابراهيم ابن المهدى ، تألفها وتتودد «إليها .. ومن والدتى تعلم ابراهيم بن المهدى أول ما تعلمه من الغناء ، فكنت أنا وهو نتعلم منها معا .. وقال كل من سمعنا من أهلنا ومن المغنين المحترفين : ما سمعنا قط أخوين أحسن غناء من عُلَيَّة وأخيها ابراهيم ..

والناس يظلمون الآن أخى ابراهيم بعد أن كبر واشتهر بالغناء ، ويظنون الغناء تبذلاً منه ، وليس كذلك ، وانما أكتمل بالغناء ، وقد شهد له اسحاق الموصلى الذى لا يشهد بشىء حسن لأحد من الناس إلا نادرا ، فقال : «ما ولد العباس بن عبدالمطلب بعد عبدالله بن العباس ، رجلا كابراهيم بن المهدى» .. ذلك أن ابراهيم رجل عاقل ذكى متدين شاعر راوية للشعر وأيام العرب ، خطيب فصيح حسن العارضة .. لم ينتقص الغناء من فضله بل تم فضله به ، مع تصرف فى الفقه وسائر العلوم الشريفة والآداب العالية ! ..

وهو يصنع الألحان وينسبها إلى جاريتيه «ريق» و«شارية» ترفعا عن الدخول فى مضمار الملحنين .. وإذا قيل له فى ذلك شىء ، قال : إنما أصنع الألحان تطربا لا تكسبا .. وأغنى لنفسى لا للناس ! ..

فهذا هو شأن أخى ابراهيم فى الغناء ، وإن أكثر القول فيه عائبوه من الخاصة والعامة

ولا أطيل الدفاع عن أخى ، فما هو عندى بمتهم ولا عند من يعرفه من أهل العلم وكبراء الدولة ، فضلا عن أخيه أمير المؤمنين الرشيد ..

أما أنا ، فوالله إنى لحسنة الدين ، لا أغنى ولا أقرب شرابا إلا إذا كنت معتزلة الصلاة لعذر شرعى ، فإذا طهرت أقبلت على الصلاة والقرآن وقراءة الكتب ، ولا ألذ

بشيء غير قول الشعر أحيانا ، إلا أن يدعونى أخي الخليفة إلى شيء من الغناء فلا أقدر على مخالفته .. وإني لأقول لنفسي وللناس : ما حرم الله شيئا إلا وقد جعل فيما حلل منه عوضا .. فبأى شيء يحتج عاصيه والمنتهك لحرماته ؟! ..

وإنما يرميني بعض الناس بالتهم لما يقرأونه في بعض شعرى من العبث ، ووالله ما في شعرى إلا مجرد الكلام ، وإني لأقول فيه مالا أفعل ، ولا غفر الله لى فاحشة ارتكبتها إن كنت ارتكبت فاحشة قط ! ..

ومن هذا العبث الذى هو كلام لا غير ، ما نظمته فى خادم اسمه «طل» .. من خدم أخي هارون الرشيد ، فحلف الرشيد ألا أكلم خادمه ولا أسميه باسمه أبدا ، فضمنت له ذلك .. فبينما أنا أقرأ سورة البقرة يوما بلغت إلى قوله عز وجل «فإن لم يصبها وابل فطل» .. وإذا بأمير المؤمنين قد جاء إلى مجلسي ، وقد سبق لى أن ضمنت له ألا أذكر اسم خادمه «طل» أبدا .. فقرأت وهو يسمع «فإن لم يصبها وابل ..» .. ثم قطعت ، وقلت : «فالذى نهانا عنه أمير المؤمنين» ..

فتنبه الرشيد إلى ذلك وقبل رأسي ، وعرف أنه قد اشتد في التضييق علىّ حتى في ذكر الأسماء ، وقال لى لا أمنعك بعد هذا من شيء تريدينه ! ..

ولما نظمت هذه الأبيات :

أيا سروة البستان طـال تشوقى
فهل لى إلى ظل لديك سبيل
متى يلتقى من ليس يقضى خروجه
وليس لمن يهوى إليه دخول
عسى الله أن نرتاح من كربة لنا
فيلقى اغتباطا خلة وخليل

زعم بعض من سمع هذا الشعر أنه غزل نظمته فى «طل» وصحفت اسمه فى أول بيت .. فغاظنى قولهم ، فلحنت الشعر وغنيته ! ..

ولى خادم اسمه «رشأ» .. فلما نظمت الأبيات التى أولها :

وجـــد الفـؤاد بزينبـــا
وجـــدا شديـــدا متعبـــا

قال أولئك الناس : علية بنت المهدى تنظم الشعر فى خادمها «رشأ» .. وتكنى عنه بزينب ! ..

● اليوم الثانى :

سمعت أن أسحاق الموصلى عمل لحنا جميلا فى هذين البيتين

سقيا لأرض إذا ما نمت نبهني
بعد الهُدُوّ بها قرع النواقيس
كأن سوسنها في كل شارقة
على الميادين أذناب الطواويس

دعوت اسحاق ، وسمعت منه اللحن فأعجبني كل الإعجاب ، فقلت له
ـ يا اسحاق .. أنت أعددت هذا اللحن للخليفة ، ولكنه قد يسمعه فلا يأمر لك بشيء ، ولا يقع غناؤك منه بحث توخيت ، فيذهب سعيك باطلا ! .. وهذه عشرون ألف درهم وعشرون ثوبا ، تأخذها مني وتعطيني هذا اللحن فإني قد حفظته منك الساعة !

قال اسحاق متخابثا
ـ فلعل اللحن لم يستقم لك ، فأسمعيني إياه ، فإن كان فيه شيء لم يستقم لك بعد بصرتك به ! ..
إندفعت فغنيته اللحن وقلت له :
ـ كيف تراه يا اسحاق ؟!
ـ أراه أحسن ما يكون الغناء ! .. والله ما صافح سمعي غناء أجمل منه قط ! ..

فأحضرت له عشرين ألف درهم وعشرين ثوبا أخرى ، وقلت له بحزم :
ـ يا اسحاق .. هذه أربعون ألفا .. هي ثمن لحنك هذا ، وأنا الآن داخلة إلى أخي أمير المؤمنين الرشيد لأغنيه هذا اللحن وأدعيه لنفسي وأنه من صنعتي .. ووالله لئن نطقت أن لك فيه صنعة لأقتلنك ! ..

فأخذ اسحاق جائزته وانصرف واجما ، كأنه محزون على اللحن ، وإنه لضنين بألحانه ، وكان خليقا أن يكسب بلحنه هذا مائة ألف درهم وأكثر لو غناه للرشيد ! ..

● **اليوم الثالث** :

أهدى بعض حكام الأقاليم إلى أخي الرشيد جارية في غاية الجمال والكمال ، فانقطع لها يوما ، ودعا كل جارية إلى مجلسه واصطبح ، فكان جميع من حضره من جواريه المغنيات والخادمات في الطعام والشراب ، زهاء الفي جارية في أحسن زي من كل نوع من أنواع الثياب والجوهر ، فكان أحسن منظر تراه العيون ! ..

ولم يدع إلى هذا المجلس زوجته زبيده والدة ولي عهده محمد الأمين ، فغلظ ذلك عليها ، وحزنت ولم تجد من تشكو إليه سواي ، فأرسلت لي رقعة تشرح فيها أمرها ، فكتبت إليها : «لا يهولنك هذا ، فوالله لأردنه إليك ، وقد عزمت أن أصنع شعرا وأصوغ فيه لحنا وأطرحه على جواريّ ، فلا تبقى جارية من جواريك إلا بعثت بها إلى داري ، وألبسيهن جميعا ألوان الثياب ليأخذن هذا اللحن مع جواريّ» ..

ففعلت زبيدة ما أمرتها به كله ، حتى جاء وقت صلاة العصر ، فلم يكد الرشيد

يفرغ من أدائها ، حتى خرجت إليه من حجرتى ، وخرجت زبيدة مع جواريها من حجراتهن ، فاجتمع فى حضرة الرشيد منهن زهاء ألفى جارية عليهن غرائب الثياب ، وغنين فى لحن واحد هزجا صنعته لهذا اللقاء خاصة :

منفصل عنى وما قلبى عنه منفصل

يا قاطعى اليوم لمن نويت بعدى أن تصل

فطرب الرشيد ، وقام على رجليه حتى استقبل زبيدة ، واستقبلنى وهو على غاية السرور ، وقال لنا

ـ لم أر كاليوم قط ! ..

ثم التفت إلى خادمه مسرور فقال له

ـ يا مسرور لا تبقين من المال درهما إلا نثرته على الجوارى ! ..

فكان مبلغ ما نثره عليهن ستة آلاف ألف درهم ! .. وما سمع أحد بمثل ذلك اليوم قط ! ..

● **اليوم الرابع** :

جاءت عندى الجارية المغنية الحاذقة «عريب» .. وهى مازالت صغيرة السن ، ولكنى أراها مطبوعة على التلحين ، جميلة الصوت .. وإن لها لشأنا عظيما فى المستقبل بين الجوارى المغنيات المبدعات فى الصناعة ..

قالت لى عريب :

ـ يا سيدتى كم لحنا لك حتى الآن ؟! ..

قلت :

ـ ستون لحنا .. وأظن أنى لن أخرج من هذه الدنيا حتى أجاوز سبعين لحنا

دعت لى عريب بطول العمر ، وقالت لى

ـ يا سيدتى إنى حفظت من ابراهيم الموصلى لحنا من ألحانك .. أفتحبين أن أغنيه ، حتى أكون قد أخذته عنك لا عن الموصلى ؟! ..

ضحكت لظرف عريب وأعجبنى ذكاؤها فأمرتها بغناء اللحن ، فغنت :

يا مورى الزند قد أعيت قوادحه
اقبس إذا شئت من قلبى بمقباس
ما أقبح الناس في عيني وأسمجهم
إذا نظرت فلم أبصرك فى الناس

فسمعت من عريب أجمل صوت فى أحسن أداء ، وطربت أشد الطرب ، وبدا اللحن لى جديدا كأننى لم أصنعه ولا عرفته قط ..

فبينما نحن كذلك ، جاء أخواى : ابراهيم ويعقوب .. فأما ابراهيم بن المهدى فهو صاحب أجمل الأصوات الرجالية فى عصرنا ، لا أستثنى مخارقا ولا ابن جامع ولا

غيرهما من أصحاب الأصوات الجميلة التى سمعتها .. وأما يعقوب بن المهدى فهو أحذق الناس بالزمر ..

بدأت فغنيت لحنا لى ، وأخى يعقوب يزمر على غنائى بنغمة عجيبة

تحبب فإن الحب داعية الحب
وكم من بعيد الدار مستوجب القرب

فلما فرغت من غنائى ، غنى أخى ابراهيم فى صنعته وزمر عليه يعقوب :

يا واحد الحب مالى منك إذ كلفت
نفس بحبك إلا الهم وَالحَزَنُ
لم ينسنيك سرور لا ولا حزن
وكيف لا ! .. كيف ينسى وجهك الحسن
ولا خلا منك قلب لى ولا جسد
كلى بكلك مشغول ومرتهن
نور تَوَلَّدَ من شمس ومن قمر
حتى تكامل منه الروح والبدن

ثم غنيت وابراهيم معا ، وزمر علينا يعقوب ، فوقعت الجارية عريب على الأرض طربا ، فلم نبال بها وظنناها تفيق بعد لحظة فما أفاقت ، فقطعنا غناءنا وجسسناها فإذا هى قد غشى عليها ! ..

جاء طبيب مسرعا ، فلم يزل يداويها حتى أفاقت ، فلما استردت وعيها وجلست واستراحت ، قلت لها مشفقة :

ـ يا عريب مادهاك يا بنيتى ؟! ..

قالت لى ودموعها على خديها :

ـ يا سيدتى .. والله ما سمعت مثل الذى سمعته منكم اليوم قط .. وإننى لأعلم يقينا أننى لن أسمع مثله أبدا ولو عشت أسمع الغناء ألف سنة ! ..

● اليوم الخامس

زارنى جعفر بن يحيى البرمكى ، فتجارينا فى الحديث ، وأنا خلف ستارة ، فقال لى : إنى محدثك بقصة أرجو أن تكتميها ثم قال :

ـ منذ عام وبعض عام ، أخذ أمير المؤمنين بيدى حتى انتهى بى إلى حجرة مغلقة ففتحت له ورجع من كان معنا من الخدم ، ثم صرنا إلى حجرة مغلقة ففتحها بيده ودخلت معه وأغلقها من داخل بيده ، ثم صرنا إلى رواق ففتحه وفى صدره مجلس مغلق فقعد على باب المجلس فنقر الباب نقرات فسمعنا حسا ، ثم أعاد النقر فسمعنا صوت عود ، ثم أعاد النقر ثالثة فسمعنا صوتا لا مثيل له فى حسن الغناء مع جودة ضرب العود ، فقال أمير المؤمنين : غنى صوتى ! .. فغنت من كانت وراء الستار

ومخنث شهد الزفاف وقبله
غنى الجوارى حاسرا ومنقبا
لبس الدلال وقام ينقر دفه
نقرا أقر به العيون وأطربا
إن النساء رأينه فعشقنه
فشكون شدة ما بهن فأكذبا

فطرب الرشيد ، وطربت أنا طربا هممت معه أن أنطح برأسى الحائط لولا توقيرى لأمير المؤمنين !

ثم غنت

طــال تكذيبـى وتصديقـى
لــم أجـد عهـدا لمخلـوق
إن ناسا فى الهوى غدروا
أحدثـوا نقــض المواثيــق
لا ترانى بعــدهم أبــدا
أشـتكى عشقــا لمعشــوق

فقمت أريد أن أرقص طربا ، لولا الاحتشام .. وقام الرشيد وأخذنى ، وقال لى : امض بنا فإنى أخاف أن يبدو منك ما هو أكثر من هذا

قلت لجعفر البرمكى :

- ومن كانت صاحبة هذا الغناء ؟! ..

قال

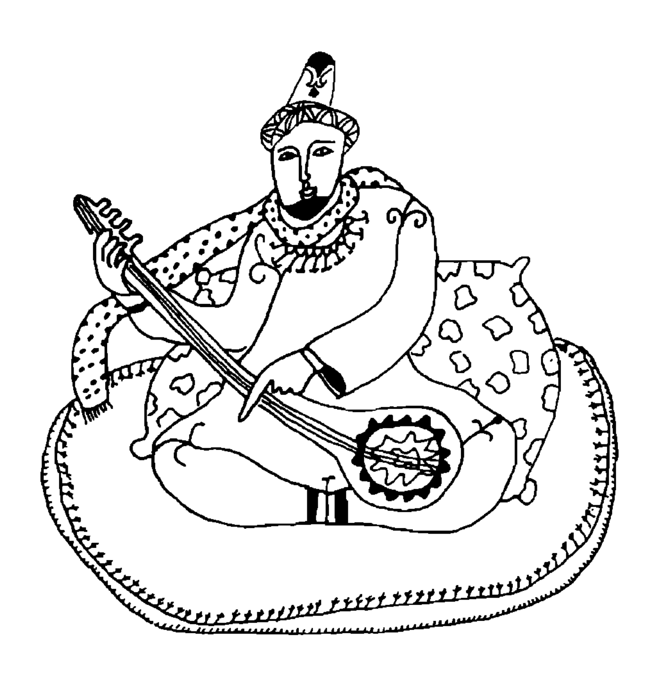
- لا أدرى ! ..

ولكنه فى الحقيقة يدرى أنه يحدثنى عن غناء سمعه منى فى تلك الساعة من ساعات صفو الرشيد ، ويبالغ فى وصف طربه إرضاء لى ، والتماسا لحسن ظنى ! ..

والرشيد لم يقل له إننى صاحبة ذلك الغناء ، فهل كان جعفر يحتاج إلى كلام فى ذلك اللقاء ليعرف صوتى من وراء حجاب ؟! ..

ما أشد دهاء جعفر البرمكى .. ويا له من ظريف أديب أريب ! .. ولكن أخى الرشيد ظريف أديب أريب داهية أكثر منه وأعجب .. وأطرب ! ..

المغـــنى الراويــة



● اليوم الأول :

أول ما طرق سمعى حين ولدت ، رنين العود .. فقد كان أبى من أكابر المغنين المتفوقين فى الغناء وضرب العود ! .. وكان بيته لايخلو من رنين العود ليلا ولا نهارا

أبى هو يحيى بن مرزوق المكى ، كان شيخ المغنين والضاربين ورواة الغناء فى عصره نشأ بمكة ثم استوطن بغداد ، فكان أكبر المغنين فيها سنا ، وأعرفهم بالغناء وأوسعهم رواية لصناعة فحول المغنين القدماء الذين أدرك بعضهم فى مكة والمدينة أو أدرك تلاميذهم ورواتهم ..

فكان ابراهيم الموصلى واسماعيل بن جامع وغيرهما من أعاظم المغنين والملحنين فى عصر الرشيد ، يلجأون إلى أبى ليطارحهم ما يجهلونه من ألحان القدماء ، فلا يعطيهم شيئا إلا بثمن باهظ ، لأنه يعلم أنهم بما يعطيهم يكسبون أضعاف أضعاف ما يغرمونه من المال ...

وكان أبى حريصا واسع الحيلة ، يصنع ألحانا وينسبها للقدماء ، وليست لهم فتجوز هذه الحيلة على من لايعرفون أسرار صناعة الغناء ويتناقلون تلك الألحان ، فوقع التخبط والتخليط فى رواية الألحان ، حتى تتبع اسحاق الموصلى ـ وهو أعلم الناس بالغناء قديمه وجديده ـ ما اخترعه والدى ونسبه للقدماء ، فبين للناس زيفه ، وحذرهم منه ، ووقف بالمرصاد لوالدى فى هذا المجال ، حتى كف عن وضع الألحان ونسبتها إلى القدماء .

وقد رأيت أبى وهو لا يخشى أحدا من المغنين والملحنين إلا اسحاق الموصلى .. فإذا حضرا معا مجلس غناء ، لم يغن أبى الا الصحيح من الألحان ، ولم ينسب لحنا لغير صاحبه ..

وقال لى أبى يوما :

ـ يابنى .. إن كنت كذبت أحيانا على بعض الناس ، فخلطت ألحان القدماء بألحان من صنعتى ، فإنما فعلت ذلك حتى لا يأكلنى المغنون والملحنون ويهدموا مكانتى ويستأثروا بجوائز الخلفاء والكبراء ، وما تطيب نفسى أن أعطى هؤلاء المغنين شيئا بلا ثمن !

قلت :

ـ يا أبى .. طارحنى إذن ألحان القدماء على وجهها الصحيح ، وطارحنى ألحانك ، لأحفظها وأدونها فى كتاب يكون أصلا من الأصول المعمول بها فى صناعة الغناء ، وأكون أنا المكى الصغير وأنت المكى الكبير فى هذه الصناعة ..

فحفظت من أبى مالا أحصيه من ألحان القدماء والمعاصرين ومن ألحانه ،

وجعلتها في كتاب يتداوله الناس الآن ، ولا يكف الوراقون في أسواق بغداد عن نسخه وبيعه .

وتوثقت الصداقة بينى وبين اسحاق الموصلى ، فقال لى يوما :

ـ يا أبا جعفر .. إنك والله من المحْسنين المبرزين فى صناعتنا ، ورواياتك كثيرة صحيحة ، وحسبك فخرا أنك أصلحت ما كان والدك ـ رحمه الله ـ قد أفسده بما وضعه من ألحان نسبها الى الأقدمين ، فأنت المكى الصغير ولكنك لا تقل قدرا عن المكى الكبير ..

قلت له

ـ نعم .. قد فعلت ، ولكن صناعة والدى التى نسبها للأقدمين ليست دون صناعتهم !

قال

ـ لو تأملتها لم تجدها كذلك ! .. وهبها كانت مثل صناعتهم فى جودتها ، فإن ذلك لا يشفع له ولا لغيره من الوضاعين فى هذه الصناعة .. وقد رأيت ما صنع الوضاعون فى الشعر .. وحتى فى الحديث النبوى الشريف ! ... وهل تقوم الرواية أو يوثق بها إلا بنفى الوضاعين عنها ، مهما خفى على الناس أمرهم ؟ ! ..

● اليوم الثانى :

كنت أغنى الليلة فى دار الحسن بن وهب ، من كبار رجال الدولة ، فدخل علينا اسحاق الموصلى ، فقال صاحب الدار :

ـ يا أبا محمد اشتقنا إليك ، وقد نسيتنا الليلة فأين كنت ؟ !

فاعتذر اليه اسحاق بأنه كان فى قصر أمير المؤمنين ولم يفرغ إلا الساعة من نوبته فى الغناء والمنادمة ، فخشع الحسن بن وهب حين ذكر اسحاق اسم الخليفة ، وبالغ فى الترحيب بإسحاق ثم جلسنا واستأنفنا ماكنا فيه من المسامرة والغناء ..

فلما غنيتهم لحنا ، طرب اسحاق والحسن بن وهب ، ومال الحسن على أذن اسحاق فسمعته يقول له :

ـ يا أبا محمد .. كم يساوى أحمد بن يحيى المكى هذا لو كان مملوكا فى سوق الرقيق ؟!

قال اسحاق

ـ يساوى عشرين ألف دينار ! ..

ثم أمرنى الحسن بن وهب فغنيت هذا اللحن من ألحان « معبد » سيد القدماء من مطربى « المدينة » وملحنيها :

لولا الحياء وأن الستر من خلقى

إذن قعدت اليك الدهر لم أقم

فطرب الحسن وإسحاق طربا شديدا .. ومال الحسن على أذن اسحاق يسأله

- كم يساوى وقد سمعت منه هذا الصوت ، لو كان مغنيا مملوكا يباع فى السوق ؟! ..

- يساوى أربعين ألف دينار ! ..

ثم غنيت صوتا ثالثا ، وكرر الحسن سؤاله هذا ، فقال اسحاق : هو بهذا الصوت يساوى ثمانين ألف دينار !

ولم يزالا كذلك سائر الليلة حتى بلغ ثمنى مائتى ألف دينار ، وهما يتضاحكان ، وأنا أتظاهر بأنى لا أسمع مايتهامسان به .. حتى قمت للانصراف فقلت للحسن بن وهب

- ماهذا الذى أسمعكما تقولانه ، ولست أدرى معناه !

قال ضاحكا

- نحن نبيعك ونشتريك منذ الليلة وأنت لا تدرى !

● **اليوم الثالث** :

سهرنا عند الخليفة .. غنى ابراهيم بن المهدى ومخارق وعلويه ، وكان اسحاق الموصلى حاضرا فلم يغن ، وقلما يغنى اسحاق ، ولكنه إذا حضر مجلس الغناء اجْتهد المغنون فى الأداء وجاءوا بأفضل ماعندهم ، وأكبر ما يتمنونه عندئذ أن يرضى عنهم ، فإذا قال لأحدهم أحسنت لم تسعه الدنيا سرورا وزهوا بهذه الشهادة من اسحاق الموصلى ، وقد يؤثرها على جائزة الخليفة ؟ ..

غنيت :

أبعد الله من يلوم محبا ولحى الله من يحب فيابى
رب إلفين أضمرا الحب دهرا فعفا الله عنهما حين تابا

فعارضنى ابراهيم بن المهدى وخطأنى فيما غنيت ، فاستشهدت باسحاق الموصلى ، وقلت له :

- أتراه صحيحا أم خطأ يا أبا محمد ؟ !

- بل أراه صحيحا ..

واتبعه علويه ومخارق وغيرهما فقالوا :

- صدق يا أمير المؤمنين اسحاق ..

فالتفت إلىّ ابراهيم بن المهدى فقلت

- أنا أغنى ثلاثين لحنا قديما ، لاتعرف منها لحنا واحدا ..

ثم اندفعت فغنيت عشرة ألحان كلها من الغناء القديم من صنعة الملحنين والمغنين المكيين الحذاق الخاملى الذكر الذين حفظت غناءهم عن أبى ، فاستحسن الخليفة ما غنيت ، وأمر لى بألفى دينار ، وأمر ألا يراجعنى أحد من المغنين ولايعارضنى أحد

ففزت وحدى فى هذه السهرة بالجائزة ، ولم يغن فيها أحد غيرى ، ولا نال جائزة ..

وسأل الخليفة اسحاق الموصلى :

ـ ما تقول يا اسحاق فى المغنى الذى يسمونه « وجه القرعة » ..

ـ قال اسحاق :

ـ مغن صالح الغناء لبق الأداء !

ـ فما تقول فى أحمد بن يحيى المكى

ـ بخ بخ .. ذاك المحسن المجمل الضارب المغنى القائم بمجلسه ، لايحوج أهل المجلس إلى غيره ! ... وقد رأيت يا أمير المؤمنين كيف انقطع المغنون بين يديه !

● **اليوم الرابع :**

توفى الخليفة الواثق منذ أسابيع ، ودخلت الليلة على الخليفة المتوكل ، فقال لى لا تغننى « عش عمر نوح » ! ..

فانكسرت وجلست محزونا ، ذلك أننى فى آخر ليلة بمجلس الواثق كنت قد غنيته :

فعش عمر نوح فى سرور وغبطة وفى خفض عيش ليس فى طوله إثم
تساعدك الأقدار فيه وتنثنى اليك وترعى فضلك العرب والعجم

فلم يعش الواثق إلا يوما واحدا بعد سماعه هذا الصوت ، وكذلك كانت قصة الخليفة محمد الأمين مع أبى حين غناه هذين البيتين ، فإنه لم يعش بعد سماعهما إلا مدة ثم خلع وقتل ودالت دولته ! ..

غنى المغنون فى حضرة المتوكل .. فكان منهم أبو حشيشة وزرزور الكبير وعثعث .. فقلت فى نفسى : أين هؤلاء ـ على جمال أصواتهم ـ من فحول المغنين الذين سمعناهم من عصر الرشيد الى الأمين فالمأمون فالمعتصم فالواثق ؟ .. فو الله ما فى هؤلاء المطربين الذين نراهم الآن من يساوى قلامة ظفر مخارق أو ابن جامع أو ابراهيم الموصلى .. أما ألحانهم ، فإنها إذا قيست إلى ألحان اسحاق الموصلى الشامخة الرائعة ، لم تكن إلا كغناء القرادين ! ..

جاء دورى فى الغناء ، فغنيت لحنا لى فى شعر عمر بن أبى ربيعة :

عندما أبصرننى أثبتننى دون قيد الميل يعدو بى الأغر
قالت الكبرى أتعرفن الفتى قالت الوسطى نعم هذا عمر
قالت الصغرى وقد تيمتها : قد عرفناه ، وهل يخفى القمر ؟ !

فطرب المتوكل طربا شديدا ، وعرف فرق ما بينى صناعتى فى الغناء وصناعة

مطربى هذا الزمن الأخير ، وأمر لى المتوكل بجائزة أكبر من جوائزهم

ثم سألنى المتوكل عن اسحاق الموصلى ، فأخبرته أنه قد ضعف وكف بصره بعد أن جاوز الثمانين من عمره ، فتوجع له المتوكل ، وقال : لئن ذهب اسحاق من الدنيا ، ليذهبن صدر عظيم من بهاء الملك ! ..

ثم قال لى :

ـ إن رأيته قادرا على الانتقال من بغداد إلينا فى « سر من رأى » .. فادعه الينا ..

● اليوم الخامس

عدت فى حراقة صغيرة الى بغداد ، وقد صارت الحراقات تملأ سطح دجلة ليلا ونهارا ذاهبة إلى « سر من رأى » وجائية منها إلى بغداد

قصدت إلى دار اسحاق الموصلى ، فوجدته قعيدا هناك لايزوره أحد ، وكان بيته فى الماضى مزار الناس كبارا وصغارا ، خاصة وسوقة ..

قال لى اسحاق وقد نقلت اليه رغبة الخليفة

ـ إنى يا أبا جعفر كما ترانى ! .. وإن السفر على حراقة فى الماء يتعبنى ، وأما السفر برا على بغل أو جمل فيكاد يقتلنى ! .. وقد ذهبت أيامى يا أبا جعفر ، ورأيت من الدنيا ما لم يره أحد .. ولكننى لا أعصى للخليفة أمرا .. وأنا على الأهبة لتلبية رغبته ، فأى شىء يعجبه من الغناء ؟ ! ..

ـ الغناء الخفيف والأهزاج !

ـ كذلك ظننت ، فإن الغناء المتقن ينحدر ويضعف شأنه ، وحسبك أن أكثر من يرويه الآن ، الجوارى أمثال عريب وشارية ! ..

صحبت اسحاق الموصلى فى حراقته ، قاصدين « سر من رأى » ورأيت الموصلى يتسمع صوت الماء فى دجلة ، ثم يقول لى

ـ وودت يا أبا جعفر لو استطعت أن أرى ماء دجلة ! ..

لم أحر جوابا .. وصمت اسحاق ولم أنبس بحرف .. حتى انقضت ساعة ، فقال لى اسحاق :

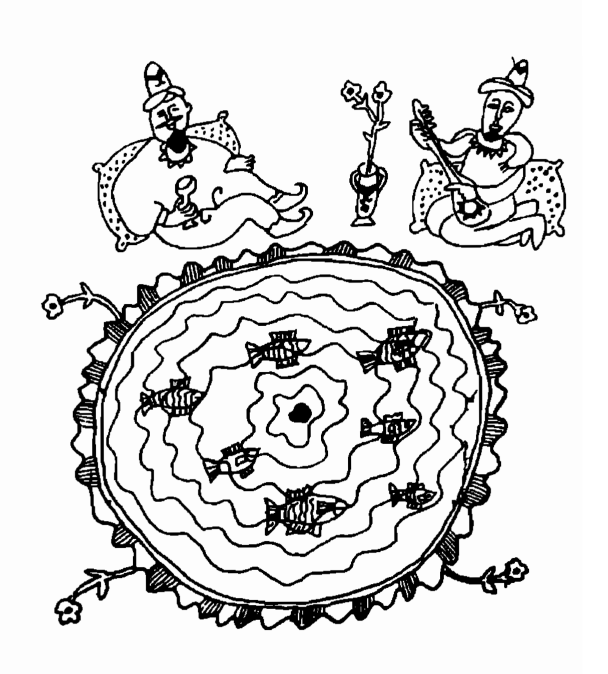
ـ هات العود .. اختبر يدى فيه ، وأختبر صوتى ، أو ما بقى من صوتى ! ..

وفى مجلس المتوكل فى قصره بسر من رأى ، جلس اسحاق على وسادة وأمسك بعوده وغنى هزجا راقصا بديع الصنعة ، وضرب بالعود ضربا لا يلحق به أحد من الضاربين ، حتى رأيت الخليفة يتحرك فى فراشه طربا ، والتفت حولى فإذا الغلمان الخدم ـ وهم واقفون فى أدبهم المعهود ـ قد نسوا أنفسهم فأخذوا يتمايلون يمنة ويسرة مع ألحان الهزج وضربات العود ! ..

وكان هذا آخر ما سمعت من اسحاق ، وآخر غناء حقيقى سمعته بعد أن دالت دولة الغناء ! ..

يوميات عَلَّوَية :

الضرب باليد اليسرى



● اليوم الأول :

أنا على بن عبدالله بن سيف ! ..

جدى ـ الذى لم أره ـ كان موطنه وراء بلاد العجم ، أو فوق بلاد العجم شمالا ، فى ناحية « الصغد » بين بخارى وسمرقند ..

جاء جدى من موطنه ضمن الأسرى الذين سباهم الوليد بن عثمان بن عفان عند فتح بلاد بخارى وسمرقند ، في عهد بنى أمية الذين كثرت الفتوح في عهدهم ..

عاش جدى إلى أواخر دولة بنى أمية ، وعاش أبى حتى أدرك عهد بنى العباس ، ولا أذكر كيف انتقلت اسرتى من دمشق إلى بغداد فقد كنت حينذاك فى عالم الغيب ! ..

يسموننى « عَلُّوَيْه » .. وهو اسم فارسى ، كأنهم لايرضون باسمى العربى « على » أو يستكثرونه على رجل مثلى من الموالى ..

وكنيتى « أبوالحسن » .. وكذلك كان يكنى الامام على بن أبى طالب رضى الله عنه ، غير أننى لست شيعيا ، وإنما أنا رجل من أهل السنة كغالبية سكان بغداد ، وجميع المسلمين أهلى وعشيرتى ! ..

إن سألت عنى الناس ، قالوا لك : علويه ، مطرب حاذق ، ملحن متفنن ، أديب شاعر ، ضارب بالعود يندر مثيله ! ..

وأنا ـ على تفوقى فى ضرب العود ـ أعسر ، استعمل يدى اليسرى ، وعودى مقلوب الأوتار ، البم أسفل الأوتار كلها ، تليه الأوتار الثلاثة الأخرى : المثلث والمثنى والزير ..

أمسك عودى باليمنى ، وأضرب باليسرى ، والعود مقلوب في حجرى ، ولكن انقلابه هذا هو عندى الاستواء الصحيح ! ..

ولما جلست أول مرة بين يدى استاذى ابراهيم الموصلى ليطارحنى الألحان ويثقفنى فى الصناعة ، فوجىء بأنى أعسر ، استخدم يسراى ، فحاول أن يعلمنى ضرب العود بيمناى فلم يستطع ، فقال لى ضاحكا :

ـ ياعلويه الأعسر .. أنت أحسن ضربا بيدك اليسرى من كثيرين يضربون باليمنى ! ..

صار لقبى « الأعسر » منذئذ ، واهتم بى إبراهيم الموصلى وعلمنى وطارحنى الغناء القديم حتى برعت فقال لى :

ـ أنت أجمل المطربين صوتا بعد مخارق ، وأحسن الضاربين بعد زلزل ، وسأحدث عنك الرشيد ، فإنه يحتاج فى مجلسه إلى مثلك من المطربين الضاربين البارعين ..

ولما التحقت بمجلس الغناء فى قصر الرشيد ، أيقنت أن الحظ ابتسم لى ، فإن مئات المغنين المحترفين من الأرقاء والأحرار ، لهم اصوات حسنة وصنعة طيبة ، ولكنهم لايحلمون بالوصول الى مجلس الرشيد .. والفضل فى وصولى أنا ومخارق والزبير بن دحمان وغيرنا ، يرجع إلى ابراهيم الموصلى وابنه اسحاق اللذين يرعيان المواهب الحقيقية .. فضلا عمن تعلم على أيديهما من جوارى وغلمان الكبراء والسراة والعظماء ، فإن عدد تلاميذهم هؤلاء مئات كثيرة فى بغداد وسائر مدائن الإسلام ..

● **اليوم الثانى** :

الفضل بن الربيع صار وزيرا للخليفة الأمين الذى تولى الخلافة بعد وفاة أبيه الرشيد ، وهو أيضا حاجب الخليفة ، وقد اهمنى ذلك وملأنى غما وكمدا ، فإن ابن الربيع هذا كثير الطعن على غنائى وان كان دائما يقصد الطعن فى اخلاقى واعمالى ، أما غنائى فإن ابن الربيع يعلم اننى من اعظم المغنين ! ..

غنيت فى مجلس الخليفة محمد الأمين لحنا جديدا لى فى شعر عمر بن أبى ربيعة

ليت هندا أنجزتنا ماتعد وشفت أنفسنا مما تجد

فقال لى الفضل بن الربيع متصنعا الغضب :

ـ ومن هند هذه التى تستنجزها ماتعد ؟! ..

قلت متوجسا شرا :

ـ لا أعرفها ، فالشعر كما تعلم ياسيدى لعمر بن أبى ربيعة !

قال مكشرا عن أنيابه

ـ فى هذا تعريض ! .. كأنك تستبطىء المأمون فى الخروج على أمر المؤمنين ومحاربته ، وقد كنت قديما من حاشية المأمون ..

قلت وأنا بين اليأس والرجاء وقد أذهلتنى هذه التهمة التى رمانى بها :

ـ والله ما كنت عنده إلا مغنيا كسائر المغنين ! ..

ونظرت فرأيت الأمين مغضبا كالحا ، ثم صاح فى غلمانه :

ـ خذوا هذا فاضربوه خمسين سوطا واقذفوا به خارج القصر ! ..

● **اليوم الثالث** :

عدت إلى بيتى مثخنا من ضرب السياط ، فعالجنى أهلى بالمراهم وغيرها ، واعتكفت أفكر فى أمرى ! ..

الفضل بن الربيع يريد اقصائى عن مجلس الخليفة ، وفى ذلك بوارى ، فإن خاصة أهل بغداد إنما يطلبوننى لمكانى فى مجلس الخليفة مع أكابر المغنين .. فإذا علموا أنه غضب علىّ وأقصانى ، تجافونى وأغلقوا أبوابهم دونى .. وهذا هو الموت الذى يريده لى الفضل بن الربيع ، وان فى هذا الرجل لرغبة عارمة فى ايذاء

الناس ، وقديما أهلكت دسائسه البرامكة وهم سادة الناس ، فأين أذهب أنا مما يدبر لى هذا الرجل من الأذى ؟! ..

فكرت فى « كوثر » .. غلام الأمين ، الذى يؤثره على جميع غلمانه ، ولايرد له طلبا .. وكل الناس يقولون كوثر .. كوثر .. كوثر ! ..

تعرفت إلى كوثر فى مجلس الخليفة ، وخصصته بنوادر وحكايات وأضاحيك أقصها عليه فيضحك لها ضحك الأطفال ، وعرف كوثر خفة روحى وطيب مجالستى وملاحة نوادرى ، فكان إذا رآنى أقبل فجلس معى ! ..

قلت فى نفسى « لم يبق من حيلة أعود بها إلى مجلس الأمين ، وأقهر بها الوزير ابن الربيع إلا التوسل بكوثر ، فنهضت فطلبت عودى ، وركبت إلى القصر ، فدرت حوله حتى جئت إلى باب أعرف أن الغلمان يدخلون منه ويخرجون كثيرا ، فسألت بعضهم عن كوثر ، فقالوا انه الساعة يخرج للنزهة ! .. فترقبته حتى بصرت به خارجا وبصر بى ، فنادانى ، فطرت اليه ! ..

فلما دنوت منه ، ضحك حتى استغرب ، وقال لى :

ـ لو كنت حاضرا ذلك المجلس لما تركتهم يضربونك يا أبا الحسن ! .. وقد أبلغنى الغلمان نبأ ذلك المجلس ! ..

قلت له متوسلا :

ـ فما أصنع الآن ياسيدى ؟! ..

ـ لاتصنع شيئا .. ولكن تعال بعد ثلاث ليال إلى القصر فستجد الخليفة قد رضى عنك ، وتغنى كعادتك إذا جاء دورك فى الغناء ، وستلقى خيرا إن شاء الله ! ..

وقد كان ، فرددت إلى الخدمة فى القصر ، وأمر لى الأمين بخمسة آلاف دينار ، وعدت الى موضعى من رضاه ! ..

● **اليوم الرابع :**

تولى المأمون الخلافة بعد حربه مع أخيه الأمين ، فلما قدم من خراسان الى بغداد ، ذهبت الى مجلسه مدلا بما كان من جفاء الأمين لى ، وضربه اياى خمسين سوطا .. ولكن المأمون كان يعلم أنى رميت نفسى على « كوثر » ليترضى لى الأمين ، وأنه ترضاه لى ، فاسقطنى ذلك من عين المأمون لأنه كان يستنكر نفوذ كوثر وأمثاله فى قصر اخيه ..

أذهلنى ما صار اليه أمرى ! ..

كنت أتصور أنى سأكون المغنى الأول فى مجلس المأمون ، لأننى المغنى الوحيد الذى اتهمه الفضل بن الربيع بممالأة هذا الخليفة الجديد حين لم يكن إلا مجرد أمير على خراسان ! ..

فكرت .. ماذا أصنع ؟! ..

لا استطيع أن أرمى نفسى والقى بكرامتى عند قدمى كوثر ليصلنى بالمأمون .. فلا كوثر عنده ، وقد قتل كوثر مع الأمين فى الحرب ! ..

فبينما أنا أفكر ، طرق بابى طرقا شديدا ، وإذا بعض جند الخلافة ، يقولون آجب أمير المؤمنين ! ..

كدت أطير فرحا ، ودخلت مجلس المأمون وأنا أرقص من أقصى الايوان وأصفق واغنى

عذيرى من الانسان لا إن جفوته
صفا لـى ولا إن صرت طوع يديه
وانى لمشـتاق إلـى ظل صاحـب
يـروق ويصفـو إن كـدرت عليه

فسمع المأمون ومن فى مجلسه من المغنين لحنا بديعا ظريفا ، وقال لى المأمون

- ادن ياعلويه واعد هذا اللحن ..

فرددته عليه سبع مرات ، وهو لايشبع منه ، ثم قال لى :

- ياعلويه .. وأين هذا الصاحب الذى يصفو إن كدرت عليه .. خذ الف الف دينار واعطنى هذا الصاحب ! ..

عدت إلى مكانى عند المأمون !

بل صرت شفيعا عنده لاسحاق الموصلى ، فإن المأمون حين جلس لسماع الغناء بعد قدومه إلى بغداد بمدة ، أقبل عليه كبار المغنين جميعا ، ماعدا اسحاق الموصلى ، فقال المأمون لجلسائه مستنكرا

- ما يترك هذا الرجل الخيلاء والتيه أبدا ..

وتجافاه ، وأمر ألا يستدعى الى مجلسه

فقمت واسترضيت المأمون وقلت :

- اسحاق عبدك وابن عبدك ، وهو لايعلم أن أمير المؤمنين قد أمر باعادة مجالس الغناء بعد قطعها ، فأرسل اليه يا أمير المؤمنين ، فانه يجىء سعيا على الرأس لا على القدمين ! ..

وعاد اسحاق إلى مجلس المأمون ، وتصدره ، وصرنا كلنا « أقل من التراب » بالقياس اليه ! ..

● **اليوم الخامس** :

اجتمعت فى سهرة عند بعض سراة البغداديين مع اسحاق الموصلى .. غنيت :

ألا ياحمامى قصر دوران هجتما   بقلبـى الهوى لمـا تغنيتمـا ليـا
وأبكيتمانى وسط صحبى ولم أكن   أبالى دموع العين لو كنت خاليا

فطرب الناس طربا شديدا .. ولم يدهشنى ذلك ، فإن هذا من أجمل ألحانى وقد أديته باتقان وتحفظ لوجود اسحاق الموصلى فى المجلس ..

فوجئت باسحاق يصيح وقد تملكه الاعجاب بما غنيت :

- أحسنت والله يا أبا الحسن .. أحسنت والله كل الاحسان ! ..

فقمت من مكانى فقبلت رأس اسحاق وعينيه ، وجلست بين يديه ، وسررت بقوله سرورا شديدا ، ثم قلت له « أنت سيدى وابن سيدى ، واستاذى وابن استاذى ،

ولى اليك حاجة » !

قال اسحاق :

ـ قلْ فوالله انى أبلغ فيها ماتحب ان شاء الله ..

قلت

ـ ايما أفضل عندك أنا أو مخارق ؟! .. فإنى أحب أن أسمع منك فى هذا المعنى قولا يؤثر ، ويحكيه عنك من حضر مجلسنا هذا ، فتشرفنى به .. وقد سألتك بحقى عليك ، وبتربية ابيك لى ، وبكل حق تعظمه ، إلا حكمت ! ..

قال :

ـ ويحك ! .. والله لو كنت استجيز أن أقول غير الحق لقلته فيما تحب من هذا الأمر ، ولكنى لا استجيز إلا الحق ولا أقول غيره .. وهاك ماعندى : فلو خُيرت أنا من يطارح جوارى وغلمانى ، أو يغنينى لما اخترت غيرك ، لأنك اعلم بالصناعة والرواية ، ولكن مخارقا يغلبك عند الخلفاء والأمراء بطيب صوته وغزارة ألحانه ! ..

فلم أفز من اسحاق بشهادة كاملة يحكيها الناس وتكون حجة لى عندهم على مخارق ، فأتقدم عليه ! ..

واسحاق ـ مع ذلك ـ ليس بمحب ولا معجب بمخارق إلا مايخرج من نبرات حنجرته ، ولكنه يأبى إلا أن يشهد بما يراه حقا ..

وقد غضبت من كلامه وقمت فقلت له :

ـ أف من رضاك ومن غضبك ! ..

الشاعر الخلنجى



● اليــوم الأول :

أعود فأسجل يوميات أخرى من حياتي ..

ضقت ذرعا بابن أختي عبد الله بن محمد الخلنجي الذى يتولى القضاء فى محلة بالجانب الغربى من بغداد

إن ابن أختى هذا ، أنا ربيته وعلمته وأنفقت عليه حتى صار كاتبا شاعرا فقيها ، وسعيت له حتى نال وظيفة القاضى ، ولكنه بعد أن صار قاضيا عقنى وتنكر لى وأصبح تياها صلفا ، ولو لم يكن من حق لى عنده إلا حق الخئولة ، لكان خليقا أن يكون بارا بى ، ولكنه نسى ذلك كله ، فأقسمت لأكيدن له كيدا

علمت انه حين يحكم بين المتخاصمين يجلس الى اسطوانة من أساطين المسجد فيستند اليها بجميع جسده ولا يتحرك ، فإذا تقدم اليه الخصمان ليسمعا الحكم أقبل عليهما بجميع جسده وترك الاستناد حتى ينطق بالحكم ويفصل بينهما ثم يعود لحاله من الاستناد بجميع جسده الى اسطوانته ! ..

فأوعزت إلى بعض الخبثاء ، فعمد الى رقعة من الرقاع التى تكتب فيها الدعاوى فألصقها فى موضع ذنبة القاضى التى يغطي بها رأسه ، وأكثر من الغراء فى موضع اللصق حتى تمكن منها ، فلما تقدم اليه الخصوم وأقبل عليهم بجميع جسده كعادته انكشف رأسه وبقيت الذنبة فى موضعها مصلوبة ملتصقة بالأسطوانة ، فقام الخلنجي مغضبا ، وعلم أنها حيلة وقعت عليه ، فغطى رأسه بطيلسانه وانصرف وترك ذنبته فى مكانها حتى جاء بعض أعوانه فأخذها ..

تعالم الناس الخبر فضحكوا ، وضج الجانب الغربى من بغداد بالنكات على الخلنجى المتكبر التياه ، وقال أحد الشعراء ساخرا :

إن الخلنجي من تتايهه	أثقل باد لنا بطلعته
ماإنْ لذى نخوة مناسبة	بين أخاوينه وقصعته
يصالح الخصمُ من يخاصمه	مخافة من الجور فى قضيته
لو لم تدبقه كف قانصه	لطار تيهاً على رعيته

شهرت الأبيات وطارت فى بغداد ، فعملت فيها لحنا سوقيا أعطيته للرقاصين والقرادين والمخنثين فطافوا المدينة يغنونه حتى أحرجوا الخلنجي وفضحوه ، فاستعفى من القضاء ببغداد ، وولاه السلطان القضاء

فى حمص بالشام ..

قلت فى نفسى : والله لأكيدن له شرا من هذا كله ، فعملت لحنا فى شعر له علمت انه لن يقع من الخليفة المأمون موقعا حسنا

برئت من الاسلام إن كان ذا الذى أتاك به الواشون عني كما قالوا
ولكنهـم لمـا رأوك غـريّــة بهجرى تواصوا بالنميمة واحتالوا
فقد صرت أذنا للوشاة سميعةً ينالون من عرضى وإن شئت مانالوا

فلما سمع المأمون غنائى فى هذه الأبيات سألنى

ـ من يقول هذا الشعر ؟!

قلت بخبث

ـ قاضى حمص !

فسكت المأمون ، وأمرنى بالانصراف ولم يأمر لى بجائزة !

● اليـوم الثـانـى

حضرت مجلس المأمون ، فاذا القاضى الخلنجى هناك .. سألت بعض الخدم فعلمت أن الخليفة حين سمعنى أغنى شعره أمر باحضاره على خيل البريد ، فأحضر

قال المأمون للخلنجى :

ـ أنشدنى قولك فى الغزل :

برئت من الاسلام ان كان ذا الذى أتاك به الواشون عنى كما قالوا

فقام الرجل على رجليه ضارعا يقول

ـ ياأمير المؤمنين .. هذه أبيات قلتها منذ أربعين سنة وأنا صبى ! .. والذى أكرمك بالخلافة ، وورثك ميراث النبوة ما قلت شعرا منذ اكثر من عشرين سنة إلا فى زهد أو عتاب صديق ! ..

قال له المأمون :

ـ إجلس ! ..

فجلس الرجل وكأنه ينتظر الموت ، فناوله المأمون قدح نبيذ التمر ، فقال : لا والله يا أمير المؤمنين ما أعرف شيئا من هذا ! ..

فقال له المأمون

ـ أما والله لو شربت شيئا من هذا لضربت عنقك ، وانى لأظن أنك صادق فى قولك كله ، فأنت لاتشرب نبيذا ولا تتغزل فى النساء ، ولكن لايتولى لى القضاء رجل بدأ فى قوله

بالبراءة من الاسلام ، مهما كان صادقا فيما أقسم عليه من كذب الواشين به كما يقول !
فوثب الرجل يتوسل
ـ يا أمير المؤمنين .. إنما كان هذا فى زمن الحداثة ولم يكن لى بصر بالشعر ، ولا لباقة فى الكلام ، وقد أقسمت صادقا ، فلا إثم فى قولى ! ..
فنهره الخليفة :
ـ كأنك تحكم هنا فى قضية ! .. قم فانصرف الى منزلك ، فلا يصلح مثلك للقضاء ! ..
فلما انصرف ابن أختى هذا أحزننى أمره ، وقصصت على الخليفة قصتى معه ، وأنى كدت له وشنعت عليه لتيهه واعجابه بنفسه ، وإلا فهو قاض عادل فطن نزيه .. قال المأمون :
ـ ياعلويه .. ماتطيب نفسى باعادته الى عمله ، لقوله « برئت من الاسلام » .. فليس هذا من كلام القضاة ! ..
قلت
ـ يا أمير المؤمنين .. لقد كان حين قال هذا الشعر صبيا غريرا دون العشرين من عمره ، وما هو بشاعر يتصرف فى القول تصرف الشعراء الذين يعرفون غث الكلام من سمينه !
فما استطعت ان ازحزح المأمون عن رأيه .. وندمت على ما صنعت بابن أختى ، على شدة نفورى منه ! ..

● اليـوم الثـالـث :

قضيت ساعة عند ابراهيم بن المهدى ، الأمير الذى يتعاطى الغناء وهو جميل الصوت حقا ، ولكنه قليل العلم بأسرار الصناعة ، فقال لى :
ـ ما الذى أحدثت بعدى من الصنعة يا أبا الحسن ؟!
فغنيته لحنا ثم لحنا ، فرأيته قد كاد يموت من حسده لى ، ولم يدر مايقول ، حتى غنيته الصوت الثالث وهو :

إذا كان لى شيئان يـاأم مالـك فـإن لجـارى منهمـا مـاتخيـرا
وفى واحد إن لم يكن غير واحد أراه لـه أهـلا إذا كـان مقـترا

فكاد ابراهيم بن المهدى يموت حسدا لعجزه عن صنعة مثل هذا اللحن ، فلم يجد مايقوله ، الا ان سألنى متهكما :
ـ فإن كانت لك امرأتان يا أبا الحسن ، حبوت جارك منهما واحدة ؟! ..
فغضبت وقمت عنه وانصرفت نادما على ماضيعت من وقت عنده ، وعذرت اسحاق الموصلى فى طعنه على هذا الرجل وتجهيله فى صناعة الغناء ! ..
نزلت فى زورق صغير بدجلة أتفرج وقد أوغلنا فى الليل ، فرأيت حراقة القائد على بن

هشام ، الضخمة الفاخرة المشعة بأنوار الشموع الكبار ، تتهادى على مياه دجلة ، فقلت للملاح صاحب الزورق : اطرح زورقك على هذه الحراقة العظيمة ، ففعل ، وصحت بالخدم أستأذن فى الصعود الى السفينة ، فجاءونى بالاذن من على بن هشام ، فدخلت وهو مع الجوارى يسمع ويشرب ، ولم تحتجب الجوارى عنى ، لأن على بن هشام لايحجب الجوارى ما لم يلدن ، فعندئذ يصرن أمهات اولاد ويعاملن كالزوجات فيحجبهن ، وليس كل الناس على هذه الطريقة فى أيامنا ..

كانت هناك أعظم مطربتين فى عصرنا كله : بذل ومتيم .. وقد أحب على بن هشام المطربتين ، وأظنه سيتزوج من متيم لأنه يهيم بها حبا ولايرضى لها بأقل من منزلة الزوجة ! ..

غنيت لحنى « إذا كان لى شيئان يا أم مالك » الذى كنت غنيته عند ابراهيم بن المهدى وتحفظت فى الأداء وجئت فيه بكل ماقدرت على من إجادة حتى زلزلت الحراقة وصاح على بن هشام وبذل ومتيم طربا ..

وحسبك بلحن يطرب له على بن هشام وبذل ومتيم وهم أصفى الناس ذوقا وأعظمهم علما بالغناء ..

قال لى ابن هشام

ـ لمن هذا اللحن يا أبا الحسن ؟!

ـ هذا لحن صنعته وأهديته لك ، ولم يسمعه أحد قبلك ! ..

أعجبه قولى هذا وأمرنى أن أطرح اللحن على بذل ومتيم لتأخذاه ، ففعلت ، وقضينا أحسن وقت فى هذه الليلة حتى قال لى ابن هشام :

ـ ماأجد لك مكافأة على هذه الهدية إلا أن أتحول عن هذه الحراقة بما فيها وأسلمها اليك ! .

فتسلمت الحراقة العظيمة ، وهى من أفخر سفن أمراء بغداد فى دجلة ، وتحول على بن هشام بجواريه وخدمه الى حراقة اخرى له ..

فى الصباح ، سارعت فبعت الحراقة ، لأن مثلى لايقتنى مثلها ولايقدر على صيانتها والانفاق على من يخدم فيها ويحفظها ، فكان ثمن بيعها مائة وخمسين الف درهم ، وقال لى العارفون اننى بعتها بثمن بخس ! ..

اعتزم ان شاء الله أن اشترى بهذا المال ضيعة تكون سندا فى تصاريف الزمان !

إن سفينة واحدة من السفن الفاخرة التى تمخر دجلة أو ترسو فى مراسى القصور المطلة عليه ، تساوى ضيعة كبيرة خصبة ، فكم ضيعة تمخر مياه دجلة أو ترسو عند قصورها ؟!

وإن رجلا كريما عظيما مثل على بن هشام يحبو فقيرا مثلى هذه الضيعة العائمة ، وكأنه لم يعطنى الا درهما واحدا ، فكم من الضياع العائمة وغير العائمة عند عشرات الألوف من أمراء وكبراء بغداد والعراق ودولة الخلافة العباسية العظيمة ؟ !

● اليوم الرابع

خرجت مع الخليفة المأمون الى الشام فدخلنا دمشق فطفنا فيها على قصور بنى أمية ، فدخل صحنا من صحونهم مفروشا بالرخام الأخضر كله وفيه بركة ماء ، وفى البركة سمك ، وحولها أزهار ورياحين ، فأعجبه ذلك فجلس وقال لى : غننى ونشطنى ، فكأننى نسيت الغناء كله ولم أذكر الا هذا اللحن :.

لو كان حولى بنو أمية لم تنطق رجال اراهم نطقوا
من كل قرم محض ضرائبه عن منكبيه القميص ينخرق

فنظر إلىّ مغضبا وقال : عليك وعلى بنى أمية لعنة الله ! .. ويلك ! .. ألم تجد إلا هذا الكلام ؟! ..

فأفقت من غفلتى وقلت مع البديهة :

ـ ياأمير المؤمنين .. اتلومنى أن أذكر بنى أمية ؟ ! هذا عبدكم زرياب الذى أبق منكم إلى بنى أمية فى الأندلس ، صار يملك هناك ثلاثمائة الف دينار وهبوها له سوى الخيل والضياع والرقيق .. وأنا عندكم أموت جوعا ، وكان زرياب عندكم عبدا من العبيد لاتأبهون له !

قال :

ـ فكيف كان زرياب هذا الذى هرب إلى الأمويين ؟ !

ـ كان وسطا فى جمال الصوت وجودة الصناعة ، لايعلو ولايسفل ، ولم يجد مكانا بين فحول الصناعة فى بغداد ، ولكنه صار نجم قرطبة الأوحد ! ..

قال المأمون :

ـ إنما صيره الأمويون كذلك ، نكاية فينا ، لارغبة فيه ، ولو كانت لديه بضاعة تنفق عندنا لعرضها علينا .. فهو عند بنى أمية ، عبد بنى العباس الأبق ، فلهذا يظهرون له احتفاءهم وكرمهم ، فاذهب اليهم ، وانت خير منه ، لعلك أن تكون عندهم احظى وأوفر نصيبا من المال والخيل والضياع والرقيق ! ..

فأخجلنى المأمون ـ والله ـ فقلت :

ـ لاوالله ياأمير المؤمنين ! .. لو اعطانى بنو أمية قرطبة كلها ، ماعدلت بها حفنة تراب تطؤها نعلكم على أرض بغداد ! .

فانبسطت أسارير المأمون ، وأجزل جائزتى ! ..

مسجل الأصوات



● اليـــوم الأول

يسمينى المطربون « الزف » .. وقد نسى الناس أن اسمى محمد بن عمرو ، وأننى كوفى الأصل والمولد والمنشأ ، من موالى بنى تميم .. ولم يعد أحد يذكر الا هذا اللقب : « الزف » .. الذى أنساهم اسمى وأصلى وبلدى والقبيلة التى أنتمى بالولاء اليها ! ..

سبب ذلك أننى أسرع خلق الله جميعا الى حفظ أية أغنية أسمعها ولو مرة واحدة ... فإذا سمعتها أديتها أداء متقنا لايكون بينه وبين من أخذتها عنه أدنى فرق الا فى نبرات الصوت .

لهذا سميت « الزف » .. ومعنى الزف والزفيف الإسراع ، وأنا أسرع خلق الله أخذا للغناء ! ..

وأنا والله مغن ذو صناعة وبراعة ، صحيح الأداء ، ذكى الفؤاد ، مليح النادرة ، لكنى فى الحقيقة قليل الحظ من جمال النبرات ! .. فإذا سمعنى أحد قال : مغن بارع الأداء ، ولم يقل : جميل الصوت ! ..

وإلى ما ابتليت به من خشونة النبرات ، فإنى معربد سيىء العشرة إذا انتشيت بالنبيذ ، ولو فى مجلس الخليفة .. وقد عربدت فى حضرة أمير المؤمنين الرشيد ذات ليلة فأمر بإخراجى من مجلسه ، ثم أمر بمنعى من الوصول اليه ، وجفانى وتناسانى ، والزمنى بيتى ، لا أبرحه الا الى بعض السهرات المتواضعة التى لايكاد يفى ما أكسبه منها بعيش الكفاف ! ..

وأنا الآن متعطل عن العمل أو شبه متعطل ، فالسهرات الغنائية الحقة انما تقام فى بيوت العلية من الأمراء والوزراء والكتاب والقواد وسراة بنى هاشم والبرامكة وأمثالهم .. أما هذا الذى أنا فيه من طلب العيش بالغناء للسوقة وأشباه السوقة ، فهو الاملاق والشقاء ! ..

● اليـوم الثـانـى :

طرقات خفيفة مفاجئة على باب منزلى أخرجتنى من عزلتى وملأت قلبى أملا بعد اليأس الطويل ، فهذا خادم من خدم أمير المطربين والملحنين ابراهيم الموصلى يقول لى :

ـ سيدى يقرئك السلام ويقول لك إنه ينتظرك بمنزله فى هذه الساعة ، لأمر فيه خير لك إن شاء الله ! ..

همست لنفسي وأنا أحث الخطي الى دار صديقي الموصلي : فزت والله يازف إن كان ما تحدثك به نفسك صحيحا ! .. إنه ليبدو لى أن المحنة قد تقضت ، وأن رضا الخليفة يوشك أن يعود فيغمرني بنعمائه ! .. وكيف لايعفو عني الخليفة حفظه الله وهو الانسان الرقيق الغزير الدمع ، على جبروته ؟! .. وهل ينسى لحني البارع الذي غنيته في حضرته ذات ليلة ، فسار في الآفاق وتناقلته الأسماع وتغنت به الحناجر :

يا زائرينا من الخيام حياكما الله بالسلام
يحزنني أن اطعتماني ولم تنالا سوى الكلام
بورك هارون من إمام بطاعة الله ذى اعتصام
له إلى ذي الجلال قربى ليست لعدل ولا إمام

ثم إنني كنت أضحكه كثيرا بنوادري ، وبما أدعيه من الحان المطرب والملحن الكبير اسماعيل بن جامع منافس ابراهيم الموصلي .. فإن ابن جامع ، برغم نسبه في قريش ، وانفراده دون المغنين جميعا بهذا النسب العربي الكريم ، يضن بدرهم واحد يمنحنيه ولهذا تعودت أن أضع عيني عليه حين يغني ، وأصغي اليه فأحفظ لحنه بعد أن يغنيه مرة واحدة ، ولم يكن يغنيه مرة واحدة ، لأن الرشيد لاعجابه بصوته الجميل كان يستعيده مرتين أو ثلاثا فيزداد لحنه تمكنا في رأسي وأحكيه كأنني أنا هو .. لافرق بيني وبينه الا جمال صوته ! ..

وقد غنى مرة لحنا جميلا جدا أحسن فيه كل الاحسان ، فحفظته وخرجنا ساعة من مجلس الرشيد للراحة ، فأعدت اللحن على مسامع الموصلي حتى حفظه ، وحفظه أيضا المطربون الآخرون : مخارق وعلويه وعقيد ..

فلما عدنا الى مجلس الرشيد بادر الموصلي فغنى هذا اللحن ، وقال للرشيد : هذا لحن كنت أرويه قديما وقد أخذه عني مخارق وعقيد وعلويه ! ..
فأمر الرشيد كلا منهم بأداء اللحن ، ففعلوا .. فوثب ابن جامع وهو يكاد ينشق غيظا يقول للرشيد :

- ياسيدي .. وحياتك ماصنع هذا اللحن أحد غيري ، وقد سرقه هؤلاء ليسقطوا منزلتي عندك ! ..

فقال الرشيد للموصلي .. بحياتي اصدقني عن القصة ياموصلي ! ..
فصدقه الموصلي عن القصة ، فجعل الرشيد يضحك ويصفق ويقول :
- لكل شيء آفة .. وآفة ابن جامع في غنائه محمد الزف ! ..
حدثت نفسي بذلك كله وانا مسرع الى منزل الموصلي ، وتلقاني الرجل مرحبا ، وأجلسني في رواق أنيق .. ومد الخدم لنا السفرة حافلة بالطعام

والشراب والرياحين ! ..
قال لى الموصلى :
- إننى اخترتك ياصديقى لأمر لاينهض به غيرك ، فانظر كيف تكون !
قلت متلهفا لمعرفة ماوراء كلامه :
- أبلغ فى ذلك محبتك إن شاء الله ! ..
ففكر الموصلى قليلا ، ثم قال لى متمهلا :
- ماتقول فى اسماعيل بن جامع ؟!
- بخيل شديد البخل ، أما أنت فبحر من الكرم لا ساحل له ! ..
- ماسألتك عن هذا .. إنما أسأل عن غنائه وألحانه ونبرات صوته ! ..
- هو والله محسن بارع فى التلحين ، وضيء نبرات الصوت ، وقد صدق من قال إن فى صوته مثل حلاوة العسل ! ..
- إنه والله لكذلك ، وما كنت أنتظر أن تقول عنه الا هذا .. ولكنه - ياصديقى - غلبنى البارحة فى مجلس الخليفة وفاز بجوائز عظيمة ، وانخذلت انا وانكسرت وخرجت بلا جائزة !
قلت متعجبا :
- وكيف يغلبك عند الخليفة وأنت من أنت ؟! ..
- غنى صوتا فأحسن فيه وطرب له الرشيد وسأله : أهذا الصوت من صنعتك يا اسماعيل ؟ ..
فأجابه لا .. ولكنه من صنعة ابن سريج رئيس القدماء من أهل صناعتنا ، وقد كذب ابن جامع فإن اللحن والله من صنعته هو ، ولكنه أراد ان يرى أمير المؤمنين اتساعه فى رواية الغناء القديم ، وتفوقه فى ذلك على جميع المطربين وأولهم أنا .. فلما سمع الرشيد منه ذلك أمرنى بغناء هذا اللحن فاعتذرت وانكسرت وانهزمت فى مجلسه وابن جامع ينتفش كالديك ولايبالى أن يكذب ويزعم تلك المزاعم ! .. حتى قال لى الرشيد ساخرا
- ألست تزعم أنك تحفظ الغناء القديم كله ، لايفوتك منه شيء ؟!
ومضى الموصلى يروى لى قصته :
- ثم غنى ابن جامع صوتا ثانيا أحسن من الأول من تلحينه وزعم أنه من صناعة القدماء ، فقال لى الرشيد :
- هات هذا اللحن يا ابراهيم لنرى فرق مابين أدائك وأداء ابن جامع ! ..
فاعتذرت وقلت : « ولا هذا أعرفه يا أمير المؤمنين أبقاك الله » !
ثم غنى ابن جامع صوتا ثالثا هز الخليفة طربا ، وزعم كذلك أنه صنعة قديمة ، وإنما هو من تلحينه ، فأمرنى الرشيد بغنائه فلم استطع .. وانصرف ابن جامع من مجلس الخليفة ظافرا ، وخرجت أنا مخذولا ! ..
ثم نظر الموصلى فى وجهى لحظة كأنه يستطلع أثر قصته فى نفسى فقلت له :
- وماتطلب منى الآن يا أبا اسحاق ؟! ..

قال

ـ تذهب الى ابن جامع فتهنئه على فوزه هذا وتنتقدنى وتشتمنى ثم تحتال على سماع الأصوات الثلاثة حتى تحفظها وتعود بها الى منزلى فتطارحنى إياها حتى أحفظها وأذهب الى الخليفة وأغنيها وأفسد على ابن جامع مكيدته ! .. ولك بعد ذلك ماتحبه من جهتى ، مع رضا الخليفة وعودتك الى مجلسه إن شاء الله ! ..

● اليـوم الثـالـث :

استأذنت على ابن جامع فى منزله وقلت له متهللا :

ـ جئتك مهنئا بما بلغنى من خبرك فى مجلس الخليفة أعزه الله ! .. فالحمد لله الذى أخزى على يديك الموصلى الدعى ، وكشف الفضل فى محلك من صناعتك وفنك ! ..

ضحك ابن جامع مسرورا وقال :

ـ ويحك ! لقد كان خبرا يجل عن الوصف ، وما علم به الا جلساء الخليفة ، فكيف بلغك ؟! ..

قلت متملقا متزلفا :

ـ هو أشهر من أن يخفى على مثلى ، وقد سرى فى بغداد كلها .. فهلا سررتنى أيها الأستاذ بأن تسمعنى الخبر كله حتى أرويه عنك ؟! ..

قال ابن جامع والنصر يملأ كلماته :

ـ أقم عندى ساعة حتى أروى لك كل شىء ! ..

وروى لى ابن جامع القصة ، وغنانى الأصوات الثلاثة مجتهدا فى أدائها على أحسن وجه ، وأنا أصفق وأصيح طربا وأشرب رطل النبيذ وأسجل الألحان فى دماغى بغاية الانتباه حتى أخذتها كلها بحذافيرها .. ثم ودعته وانصرفت أتعجل الوصول الى منزل الموصلى ! ..

● اليـوم الـرابـع :

فى سهرة أمير المؤمنين دعا بالمغنين فلما بصر بالموصلى بينهم قال له ساخرا : « أوقد حضرت ؟! .. أما كان ينبغى أن تجلس فى منزلك شهرا بسبب انكسارك من ابن جامع أمس ؟! ..

فقال الموصلى : « ولم ذلك يا امير المؤمنين ، جعلنى الله فداءك ؟! .. فوالله لئن أذنت لى ان اقول لأقولن ! » ..

قال الرشيد والسخرية لم تزل فى لهجته : « وما عساك أن تقول ؟! »

قال الموصلى : « انه ليس ينبغى لى ولا لغيرى أن يراك نشيطا لشىء فيعارضك ! .. والا فما فى الأرض صوت لا اعرفه » .. قال الرشيد : « دع ذاعنك ! .. قد أقررت أمس بالجهالة بما سمعت من ابن جامع ، فان كنت امسكت عنه عن معرفة ، فهات اليوم تلك الالحان ، فليس ها هنا عصبية ولا تمييز » ! ..

ضرب الموصلى بعوده فغنى عليه الالحان الثلاثة كما غناها ابن جامع تماما ، فاندفع ابن جامع يحلف للخليفة ان هذه الالحان من صنعته هو لايعرفها غيره ولايدرى كيف اخذها الموصلى منه ! ..

التفت الرشيد الى الموصلى وسأله متبسما :

- يا ابراهيم .. ما أحدثت بعدى ؟! .. بحياتى اصدقنى ! ..

قال الموصلى

- رميته بمثل سهمه يا امير المؤمنين .. بعثت اليه بمحمد الزف مغنيك وعبدك الذى غضبت عليه وأبعدته والزمته بيته ، وضمنت للزف ضمانات ، اولها ان ترضى عنه وتعيده الى مجلسك ، فمضى الزف فاحتال لى على ابن جامع حتى نقل الأصوات الثلاثة وطارحنيها حتى أحكمتها كما سمعت يا امير المؤمنين ! .. وقد سقط عنى الآن اللوم بإقرار ابن جامع أنها من صنعته هو لا من صنعة قدماء أهل الصناعة ، ولايلزمنى أن أعرف مايصنع ابن جامع ولاغيره من نظرائى ، وإنما يلزمنى ان يعرف هو شيئا من غناء الأوائل وأجهله انا .. وان ابن جامع ليشهد انى اكثر منه رواية للغناء القديم ، وماغنى القدماء لحنا الا وهو عندى ، لاينكر ذلك ابن جامع ولاغيره ! ..

ضحك الرشيد انبساطا وقال :

- صدقت يا ابراهيم ، وأبطلت كيد ابن جامع ، وقمت بحجتك ! ..

ثم التفت الى ابن جامع وقال له متفكها مواسيا :

- هيه يا اسماعيل .. الا ترى الموصلى كيف ابطل عليك مكيدتك وانتصف منك ؟ !

● اليـوم الـخامـس :

لما انتهت السهرة قال الخليفة للموصلى :

- قد رضينا عن الزف ، وأمرنا أن يؤذن له بالدخول مع المغنين فى مجالسنا ، على الا يعربد على احد من المغنين أو الندماء ! ..

أبلغنى الموصلى هذا الخبر السعيد فقلت له :

- سألتزم الصمت المطبق ، لاأصنع شيئا الا الإصغاء الى ابن جامع وتسجيل اغانيه فى دماغى ، لعلك تحتاج اليها يوما ! ..

ضحك الموصلى وضحكت ، ثم اخرج ثلاثة آلاف درهم فأعطانيها ، وقال لى :

- ولك عند الخليفة ماتحب إن شاء الله ! ..

يوميات عبد الله الربيعى :

ابن الحاجب والوزير



● **اليوم الأول :**

اسمى عبدالله ، واسم أبى « العباس » أما جدى فهو الفضل بن الربيع حاجب أمير المؤمنين الرشيد ووزيره ، ورث الحجابة عن أبيه « الربيع » الذى نشأ فى كنف أمير المؤمنين أبى جعفر المنصور جد الرشيد ، وارتفع من خادم يمسك للخليفة إبريق الوضوء ، حتى بلغ رتبة الحجابة الرفيعة الشأن !

يرانى جدى الفضل بن الربيع ـ حفظه الله ـ فيتذكر أبى الذى مات شابا صغيرا فتدمع عيناه ويضمنى الى صدره باكيا .. كان جدى شديد المحبة لابنه وقد سماه « العباس » تيمنا باسم الجد الأكبر لخلفاء الدولة العباسية ، وسمانى « عبدالله » تيمنا باسم عبدالله بن العباس ، بحر العلوم ، وإمام العلماء ، وجد الخلفاء ..

عمتى « رقية » فى حال لا نهاية وراءها من الرقة والمحبة لى .. كلما رأتنى بكت ، لما يساورها من الحزن الدائم على أخيها أبى رحمه الله !

أحببت جارية مغنية من جوارى عمتى ، حبا ملأ قلبى ، ولكنى لم أستطع ملازمة الجارية خوفا من أن ينكشف لعمتى ولجدى حبى لها فأمنع من لقائها

ادعيت لعمتى أننى أشتهى أن أتعلم الغناء من هذه الجارية ، فى ستر عن جدى الذى يرشحنى للحجابة أو الوزارة متى كبرت ، ويريدنى أن أطلب العلم الذى أبلغ به هذه الرتبة الرفيعة فى الدولة ، ولايخطر بباله أنى أطلب علم الغناء فأسقط به من عيون الناس كما سقط ابراهيم بن المهدى الذى يغنى ويلحن وهو ابن خليفة وحفيد خليفة وأخو خليفة ! ..

قالت لى عمتى :

ـ يابنى .. لاتجعل الشهوة للغناء تغلب عقلك .. إن جدك يعلق آماله عليك ويعدك لكرسى الوزارة ! ..

قلت

ـ ياعمتى إن منعتمونى من تعلم الغناء مت غما وكمدا !

قالت مشفقة غير متشددة :

ـ أكره يابنى أن تحذق الغناء وتشهر به فتسقط ويفضح بك أبوك ـ رحمه الله ـ وجدك أطال الله بقاءه ! ..

قلت أطمئنها :

ـ لا تخافى ياعمتى ، فإنما أنال منه مقدار ما ألهو به ، لا أزيد على ذلك شيئا إن شاء الله ..

قالت

إن كان قصدك أن تلهو بما تأخذ من الغناء ، ولا تظهره أبدا للناس ، فذلك إليك ، وأنت به أعلم

لازمت الجارية المغنية التى شغفتنى حبا ، فتعلمت منها ضرب العود وأخذت عنها وعن الجوارى الأخريات فى قصرنا ألحانا كثيرة ، وأنا سريع الأخذ والحفظ ، ولى فى الغناء طبع أصيل ..

ثابرت على حضور مجالس جدى التى يغنيه فيها اسحاق الموصلى ومخارق وعلويه وغيرهم ، فلم يبق لحن من ألحانهم إلا حفظته ، حتى أحسست من نفسى قوة فى صناعة الغناء ، فلحنت فى شعر للعرجى حفيد عثمان بن عفان

أماطت كساء الخز عن حر وجهها
وأدنت على الخدين بردا مهلهلا

عرضت لحنى على حبيبتى الجارية المغنية فقالت لى

ـ والله ما يقدر اسحاق الموصلى على أحسن من هذا ..

وبعض الجوارى المغنيات يجئن إلى دارنا فيطرحن على جوارى عمتى وجوارى جدى ألحانا كثيرة ، ويأخذن منهن ألحانا أخرى ، وقد أسمعتهن لحنى فى شعر العرجى فأخذنه وغنينه ، ثم اشتهر اللحن حتى غناه بعض المغنين لأمير المؤمنين هارون الرشيد فاستحسنه ، وقيل له إنه من صناعتى ! ..

دعا الرشيد جدى وقال له :

ـ يا فضل .. يكون لك ابن يغنى ويصنع ألحانا جميلة ، ولا تخبرنى بذلك ؟ !

قال جدى :

ـ وحق ولائك يا أمير المؤمنين ، ونعمتك ، وإلا فأنا نفى منهما برىء من بيعتك ، وعلى العهد والميثاق ، والعتق والطلاق .. إن كنت علمت بشىء من هذا قط إلا منك الساعة ! .. فمن هذا من ولدى يا أمير المؤمنين ؟ ! ..

قال الرشيد :

ـ حفيدك عبدالله بن العباس .. فهلا أحضرته عندنا يوما فنسمع منه صنعته وقد سمعناها من غيره ؟ ! ..

عاد جدى الى قصرنا يكاد ينشق غيظا ، فشتمنى وقال لى : ياكلب ! .. بلغ من حمقك أن تتعلم الغناء بغير إذنى ، ثم زدت فصنعت ألحانا وألقيت صنعتك على الجوارى فى دارى ، ثم تجاوزتهن الى جوارى المغنين ، حتى بلغت قصتك أمير المؤمنين ، ففضحت آباءك فى قبورهم ، وسقطت الى الأبد إلا عن رتبة المغنين .. وكنت أظنك تبلغ مرتبة الحجابة أو الوزارة من بعدى ! ..

فبكيت غما بما جرى ، فرحمنى وضمنى اليه وقال :

ـ قد صارت الآن مصيبتى فى أبيك مصيبتين .. إحداهما بموته ، والأخرى بك وهى موصولة بحياتى ! .. أما مصيبة العار فهى باقية علينا وعلى أهلنا من بعدنا ! .

ثم بكى جدى أحر بكاء ، حتى هان علىّ أن أموت وتوارينى الأرض فى جوفها ! ..

● اليوم الثالث :

● رأيت جدى اليوم هادئا مستسلما للأقدار ، وابتدرنى :

ـ يعز علىّ يابنى أن أراك على غير ما أحب لك .. كنت أرشحك حاجبا أو وزيرا ، فالآن سقطت عن هاتين الرتبتين الرفيعتين فى الدولة .. وقد خرج الأمر من يدى فليست لى فيه حيلة ! ..

ثم قال منكسرا محزونا

ـ يابنى .. جئنى بعود وأسمعنى صوتك وألحانك حتى أنظر كيف أنت فى صناعة الغناء ، فإن كنت تصلح للخدمة عند الخليفة فى هذه الفضيحة ، وإلا جئت أمير المؤمنين بك منفردا وعرفته خبرك وأنك تلهو ولا تحسن شيئا ، واستعفيته لك ، لتقصيرك فى هذه الصناعة .. وأمير المؤمنين خير من يستر عورتنا ! ..

فلما غنيته ، بكى وقال :

ـ الآن بطلت والله حجتى ، وخاب فيك أملى ، فإن صناعتك فى الغناء جيدة ، وصوتك حسن ، ووالله ما أراك إلا صائرا إلى احتراف الغناء طول حياتك ، فوا حزنى عليك وعلى أبيك ! ..

قلت ضارعا متألما :

ـ ياسيدى .. ليتنى مت قبل هذا الذى أنكرته من أمرى ! .. لكنى وحياتك ياسيدى لاغنيت أبدا إلا لخليفة ، أو لولى عهد مرشح للخلافة

قال وهو يمسح دموعه :

ـ قد أحسنت يابنى فيما نبهت عليه من هذا ، فلا تغن إلا للخليفة أو لولى عهده ! .. »

● اليوم الرابع :

أخذنى جدى إلى مجلس الرشيد فوقفت بين يديه أرتعد ، فاستدنانى حتى صرت قريبا منه ، ومازحنى وأقبل علىّ بوجه منبسط ، وهدأ من روعى ، وأمر جدى بالانصراف لكيلا أخجل من الغناء فى محضره ومن حولى المغنون المحترفون ! ..

ثم أمر المغنين فحدثونى وتفكهوا معى بالنوادر ، وسقونى أقداحا ، ثم غنوا واحدا بعد واحد .. فلما جاءت نوبتى فى الغناء أمسكت بالعود ووقفت أستأذن فى الغناء ، فضحك الرشيد وقال لى : غن جالسا .. فجلست وغنيت ، فطرب واستعادنى ثلاث مرات وشرب أقداحا ..

ثم دعا بمسرور الخادم فقال له :

ـ يا مسرور .. احمل الساعة مع عبدالله عشرة آلاف دينار وثلاثين ثوبا من فاخر ثيابى وصندوقا مملوءا بالطيب ..

قال لى جدى وقد مضت أسابيع على غنائى فى قصر الرشيد :

ـ كأنك سررت بما أعطاك أمير المؤمنين من الدنانير .. ولوددت والله أنى أدفع ألف ألف دينار ولايكون لك أدنى علم بالغناء ، ولكن قضاء الله لا مرد له ، ولن تفلح أبدا ! ..

قلت

ـ ياسيدى هل جنيت جناية ؟ !

صاح مغتاظا :

ـ أخبرني عنك أيها الغلام .. هل كنت منذ يوم أو يومين فى « قطربل » تشرب النبيذ بغير غناء فى حانة هناك مع بعض الفساق ؟ ! ..

لم أحر جوابا فمضى يقول :

ـ قد جاءنى من أخبرنى بذلك .. فهل هذا فعل من يفلح ، وهل هذا إلا من ضعة النفس وسقوط الهمة والتبذل والانخفاض عن مراتب أهلك ، والتدلى الى السوقة والشطار والراقصين فى الأفراح ؟! وقد بلغنى أنك تتفكه بغناء شعر مدحنى به اسحاق الموصلى منذ بضعة عشر عاما ، وكنت أنت وقتئذ فى نحو السنتين من عمرك ، فرآك اسحاق جالسا فى حجرى فقال ذلك الشعر يمدحنى ويبشرنى بمستقبلك العظيم ! ..

فاجأنى كلامه هذا فقلت متظلما :

ـ والله ياسيدى ما أعرف هذا الشعر الذى تتحدث عنه فكيف أغنيه وأتفكه به ؟ !

أشاح عنى

ـ كذبت ياغلام ! .. أما تروى الرجز الذى نظمه اسحاق يمدحنى ويذكرك بقوله :

مد لك الله الحياة مدا
حتى يكون ابنك هذا جدا
مؤزرا بمجده مردى
ثم يفدى مثلما تفدى
اشبه منك جبهة وخدا
وشيما محمودة ومجدا
كأنه انت اذا تبدى

ـ لا والله ياسيدى ما أروى هذا الرجز ولا سمعته إلا الساعة منك ! ..

زمجر متعجبا متحزنا على مصيرى :

ـ إن مصيبتى فيك لعظيمة ! صرت مغنيا وصارت حانات قطربل مكان صبوحك وغبوقك ! .. تتكلم فتكذب وتنكر ما ترتكب من الموبقات ، والناس يرونك هازئين متندرين بك وبى ويقولون شامتين :

ـ هذا حفيد حاجب الخلافة ووزيرها ! ..

مرت الأيام مر السحاب .. تسارعت السنون .. مات جدى رحمه الله حسران على أننى لم أسلك مثله الطريق إلى الحجابة والوزارة .. وقد مات الرشيد ثم لحق به الأمين والمأمون والمعتصم .. وها نحن أولاء فى عصر الخليفة الواثق بالله !

أراجع نفسى أحيانا : هل أخطأت ؟! .. هل كان طريق الوزارة والحجابة خيرا من طريق الغناء ؟ !

ركبتنى الهموم فصرت لا أفارق رطل النبيذ لا فى الصباح ولا فى المساء ، إلا يوم الجمعة ، أو فى شهر رمضان ، أو فى الحج ! ..

أثقلتنى الديون فاستترت من الغرماء الذين أقرضونى بالربا الفاحش ، فشكوت إلى الخليفة ، فأمر بقضاء دينى وألا يحتسب للدائنين إلا رؤوس أموالهم ويسقط الربا كله ، وينادى بذلك فى سامرا وبغداد ، فلا يدفع مدين إلى دائن إلا رأس ماله فقط فسقط عنى وعن الناس من أرباح الربا زهاء مائة ألف دينار

علمت أن أمير المؤمنين الواثق وجاريته « فريدة » المغنية البارعة الحسناء قد تغاضبا وتهاجرا ، ولزمت فريدة مقصورتها ..

حدثت نفسى بأن فريدة قد امتلكت قلب الواثق امتلاكا ، ولابد له من مراجعتها واسترضائها ، فنظمت أبياتا فى معنى خصام الأحبة ، وغنيتها فى سهرة الخليفة ، ففطن إلى معناها واستعادها مرارا وشرب عليها ، وأمر لى بألف دينار وثياب فاخرة ، وقام من وقته فاسترضى فريدة وعادا أحسن مما كانا ..

أقبلت فريدة بعد انصراف المغنين وليس عند الخليفة غيرى ، فأخذت عودا وتغنت فأتت بالسحر فى غنائها حتى كاد الخليفة يشق ثيابه طربا .. وتماسكت أنا حتى لا أسىء الأدب إذا أظهرت ما داخلنى من الطرب ! ..

فلما هدأ الواثق اقترح أن أغنيه هذا اللحن من صنعتى وشعرى :

أفدى التى قلت لها
والبين منا قد دنا
هجرك قد انحل صبرى
وأذاب .... البدنا
قالت فماذا حيلتى
كذاك قد ذبت أنا

غنيته وفريدة مرهفة السمع تحفظ اللحن ، وهى سريعة الحفظ ، تسمع اللحن مرة واحدة فتؤديه كأنه من صنعتها ! ..

فبينما نحن فى ذلك ، دخل الوزير محمد بن عبد الملك الزيات لأمر من أمور الدولة ، فقال للواثق بعد أن فرغت من الغناء منوها بى :

ـ هذا والله يا أمير المؤمنين أولى الناس بأقبالك عليه ، واستحسانك له ، واصطناعك إياه ! ..

قال الواثق :

ـ أجل لاغرو .. إن عبدالله هو ابن موالى أبى وجدى ! ..

قال الوزير :

ـ ليس كل مولى يا أمير المؤمنين ولا كل خادم ، يجمع ما جمع عبدالله من ظرف وأدب وصحة فكر وجودة شعر وحسن غناء !

فلما كان من الغد قصدت الى الوزير شاكرا فقلت له : قد أفرط الوزير ـ أعزه الله ـ فى وصفى وتقريظى عند أمير المؤمنين حتى وصفنى بجودة الشعر ، وليس الشعر من شغلى ، وإنما أعبث بنظم البيتن والثلاثة ، وذلك يصغر عن أن يصفه الوزير ويثنى عليه ومحل الوزير فى الشعر هو المحل الرفيع المشهور .. فقال الوزير

ـ والله يا أخى لو عرفت مقدار إحسانك فى قولك :

يا شادنا رام إذ مر
فى السعانيـــن قتلى
يقول لى كيف أصبحت ؟ !
كيف يصبح مثلى !

لما استهنت بما تنظم من الشعر ! .. فوالله لو لم يكن لك شعر فى عمرك كله إلا قولك « كيف يصبح مثلى » .. لكنت شاعرا مجيدا !

لم تدهشنى دقة ذوق الوزير وفهمه العميق للشعر ، فإن له وهو الكاتب العظيم ـ فرائد فى الشعر عجيبة ! ..

● **اليوم السابع** :

اشترت لى عمتى رقية من مالها جارية امتلأ قلبى بحبها فقالت لى المغنية الكبيرة ، بل أستاذة المغنيات « بذل »

ـ ياعبدالله .. بلغنى أنك عشقت جارية وعشقتك واشتريتها ، فاعرضها علىّ ، فإما عذرتك لعشقها ، وإما عذلتك وأنكرت عليك ..

فلما أحضرتها قلت لبذل :

ـ هذه هى ياستى ، فانظرى واسمعى ثم مرينى فيها بما شئت أطعك ! ..

فقالت له الجارية عاتبة

ـ ياعبدالله .. أتشاور الناس فى أمرى ؟ ! .. فوالله ما شاورت فيك أحدا لما أحببتك ! ..

فنعرت « بذل » وصاحت وقد هزها الاعجاب العظيم بالجارية :

ـ إيه ! .. أحسنت والله ياصبية جدا .. ولو لم تحسنى شيئا ولا كانت فيك خصلة محمودة ، لو جب أن يعشقك عبدالله لهذه الكلمة البارعة التى قلتها له ! .. أحسنت والله فى كلامك وجئت بأحلى المعانى !

ثم قالت لى « بذل » :

ـ ياعبدالله .. ما ضاع شىء من مالك فى هذه الجارية .. ولو أنفقت عليها ألف ألف دينار لكنت رابحا ! احتفظ يا عبدالله بصاحبتك ! ..

لقد طربت « بذل » لأربع كلمات فاهت بها جاريتى .. ولم أرها قط تطرب مثل هذا

الطرب لمغن أو مغنية !

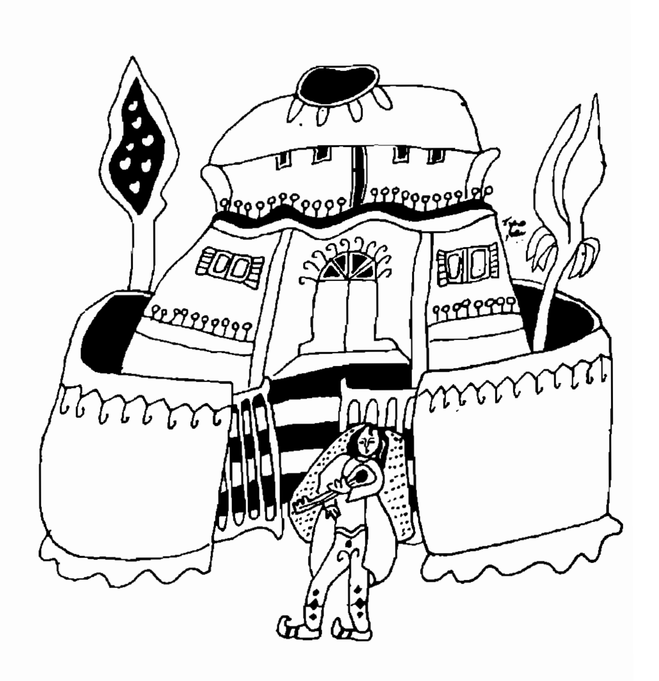
وهكذا أنا أمضى فى الحياة .. أغنى وأحب الجوارى وأنادم الملوك والأمراء والوزراء ، وأتذكر جدى - رحمه الله - إذ يقول لي في سالف الزمان « والله لن تفلح أبدا » !

كان يريدنى وزيرا أو حاجبا للخلافة العباسية الجليلة ، كما كان هو يرحمه الله !

ولكنا نريد ، والدنيا تذهب بنا حيث تريد ! ..

فهل ترانى أفلحت في شيء ؟ ! ..

مائة ألف دينار ..
وولايـــة مصـــر



● **اليوم الأول** :

أخذت فن الغناء وصنعة الضرب بالعود ، عن ابراهيم الموصلي وابنه اسحاق ، وطارحت يحيى المكى المغنى العجوز ألحان الأقدمين حتى حفظتها وأحكمت حفظها ، وتفوقت على الجوارى المغنيات ، ونزلت سوق الرقيق فاشترانى سيدى صالح بن عبدالوهاب .. ولما قبض النخاس ثمنى همس فى أذنى :

- أبشرى .. فإن الله أراد بك خيرا ، فهذا السيد الذى اشتراك من أكبر بيوتات بغداد .. أخوه من حاشية أمير هاشمى قريب النسب من الخليفة المعتصم بالله !

ولما صرت فى بيت سيدى هذا عرفت أنه ليس من حاشية أمير عادى ، بل من حاشية أمير من أبناء الرشيد ، واسمه صالح أيضا .. صالح بن الرشيد ! ..

وفى أولى سهراتى فى بيت صالح بن عبدالوهاب ، جاء أخوه أحمد .. وجاء أيضا الأمير صالح بن الرشيد ! أخو الخليفة المعتصم ..

ولم أكد أمسك بالعود لأضرب وأغنى ، حتى دخل علينا اسحاق الموصلى ! .. جاء متأخرا ، لايبالى أن يجيء بعد الأمراء والكبراء ، فقد اعتادوا أن يتيه عليهم ، وأن يتلطفوا فى معاملته ، إكبارا لشأنه ، وانهم ليرون الخليفة المعتصم نفسه يعلى مكانه ويحبه ويجزل له العطاء ، وربما خصه بالحديث فيما لايتحدث فيه مع أكبرهم شأنا ، وكذلك كان يفعل الخليفة المأمون من قبل .. والخليفة هارون الرشيد أيضا ..

قال لى صالح بن الرشيد فى كبرياء ابن الخليفة وأخى الخليفة وعم ولى عهد الخليفة :

- ماذا تحسنين يا جارية من الغناء ؟ ! ..

فبادر اسحاق الموصلى فقال :

- إنها تحسن الغناء والضرب بالعود ، ولها فى التلحين صنعة تفضل صنعة بعض كبار المغنين ! ..

قال صالح بن الرشيد لاسحاق ضاحكا متأدبا :

- لم يزل دأبك يا أبا محمد انتقاص كبار المغنين ، ولا يلومك من يعرف قدرك فى الصناعة ، فأين هم منك ؟ ! ..

ضربت بالعود وغنيت لحنا لى فى شعر لمحمد بن كناسة كان اسحاق الموصلى معجبا به :

فىَّ انقباض وحشمة فإذا صادفت أهل الوفاء والكرم
أرسلت نفسى على سجيتها وقلت ما قلت غير محتشم

فارتج الحاضرون طربا ، وعلى رأسهم صالح بن الرشيد ، ورأيته يحملق فى وجهى ، كأنه يقول فى نفسه ما أجمل هذه الجارية ! ..

● اليوم الثانى :

أقبل على سهرتنا بعض كبار المطربين وقد تسامعوا بجمال صوتى وإحسانى فى التلحين والضرب بالعود ..

رأيت المطربين الكبيرين مخارقا وعلويه لأول مرة ، وكنت أسمع بهما ويقول لى من يحدثنى عنهما مخارق أجمل المغنين المحترفين صوتا .. ثم علويه ! ..

وفى بغداد التى يبلغ عدد سكانها ألف ألف نسمة ، لايعرف الناس وجوه المغنين الكبار ، ولا يلتقون بهم ، لأن هؤلاء المغنين الكبار يتحركون فى دائرة القصور فقط .. قصور الخليفة والأمراء والوزراء والكبراء .. إلا أن أسماءهم الشهيرة تملأ أسماع بغداد ..

ويسكن هؤلاء المغنون فى الأحياء الفخمة القريبة من قصور العظماء ، وقد فرض عليهم قربهم من الطبقة العليا فى المدينة ، أن يحجبوا أنفسهم عن العامة ، فلا يعرف العامة إلا عبيدة الطنبورية وهى أحسن المغنيات الطنبوريات صوتا وصناعة ، ولكنها ابتذلت نفسها فى أعراس العامة وسهراتهم ، فصار أجرها لايتعدى دينارين فى الليلة ، فى حين يتقاضى المغنى الكبير ألوف الدنانير ! ..

وقد أوشكت أنا أن أصير مغنية مغمورة فى بيت من بيوت النخاسين الذين يجمعون فيها المغنيات ويدخلها الناس نظير أجر معين ، ويسمعون الغناء - وهم كثيرون - فى صخب وجهل بأصول السماع وآدابه ! ..

ولكن حظى الطيب عدل بى إلى بيت سيدى صالح ، فصرت كبيرة الأمل فى أن أصير يوما الى منزلة أكون فيها مساوية أو مقاربة للمغنيات المترفات اللاتى أسمع عما يتمتعن به من مال وجاه ومجد فى قصور الأمراء والكبراء ..

غنيت فى السهرة طويلا ، ومخارق وعلويه يسمعان ، وينظران إلى يدى على أوتار العود ، حتى فرغت من غنائى ، فقال لى مخارق :

- والله .. ما أنت ياجارية بأقل شأنا ممن سمعنا غناءهن فى قصر الخليفة وقصور الأمراء والوزراء .. وإنك فوق جودة غنائك لفائقة الحسن .. فما اسمك أيتها الحسناء ؟ !

قال سيدى

- اسمها قلم ! ..

قال علويه :

- فهى إذن قلم الحسناء ! ..

● اليوم الثالث :

مات الخليفة « المعتصم » .. وتولى الخلافة ولده « هارون الواثق » .. وهو يحب

الغناء .. وسمعت اسحاق الموصلى منذ قليل يقول : « الواثق أكثر معرفة بالغناء من المغنين الذين يسمعهم » ! ..

وحدثنى سيدى صالح بن عبدالوهاب أن الواثق لما جلس أخيرا بعد مبايعته بالخلافة ، دخل عليه الشاعر على بن الجهم ، فأنشده :

قد فاز ذو الدنيا وذو الدين بدولة الواثق هارون
وعم بالاحسان من فعله فالناس فى خفض وفى لين
ما أكثر الداعى له بالبقا وأكثر التالى بآمين

ثم أنشده ابن الجهم أيضا :

وثقت بالملك الواثق
بالله النفوس
مالك يشقى به المال
ولا يشقى الجليس
يابنى العباس يأبى الله
إلا أن تسوسوا

فقلت لسيدى :

ـ ألم ينشده أبو تمام الطائى عظيم الشعراء شيئا ؟ !

قال :

ـ الواثق لايقرب إلى مجلسه إلا صغار الشعراء ، وأظن أن أبا تمام لن ينال منه شيئا مدة خلافته ، مع أن أبا تمام هو الذى أغرى « المعتصم » بجعله وليا للعهد ، بمدائح كثيرة مشهورة .. حسبك منها قوله :

فاشدد بهارون الخلافة إنه سكن لوحشتها ودار قرار
ولقد علمت بأن ذلك معصم ما كنت تتركه بغير سوار

صنعت لحنين جميلين فى الشعر الذى نظمه ابن الجهم ، وجاءت إحدى جوارى صالح بن الرشيد فحفظت اللحنين .. ثم بلغنى أن الواثق لما سمعهما أعجب بهما وسأل عن صاحبهما ، فذكروا له اسمى وحدثوه عنى ..

● اليوم الرابع

غنت إحدى جوارى الواثق لحنى فى شعر محمد بن كناسة : «فى انقباض وحشمة» .. فسأل عن صاحب اللحن فذكرونى له ، فقال :

ـ أهى «قلم» التى لحنت من قبل فى شعر ابن الجهم ؟

ثم أرسل إلى وزيره محمد بن عبد الملك الزيات ، فأمره بأن يشخصنى إليه مع سيدى صالح بن عبد الوهاب ..

غنيت فى حضرة الواثق فطرب أشد الطرب ، وقال لسيدى

ـ بكم تبيعها ؟ !
ـ بمائه ألف دينار وولاية مصر ! ..
فغضب الواثق ، وظننت أنه سيأمر بقتل سيدى ، ولكنه هدأ .. وأعرض عنى وعن سيدى ، وأمر فغنى المطرب زرزور الكبير لحنا ، فلما أتمه سأله عن صاحب اللحن ، فقال : قلم ! ..
فرأيت الواثق قد تحير ، وتنازعته الرغبة فى شرائى ، والنقمة على سيدى الذى اشتط فى ثمنى حتى اشترط الولاية على مصر ! ..
ونظرت إلى سيدى صالح فوجدته قد فطن الى خطئه وخشى مغبة تطاوله على الخليفة ، فقام بين يديه مطأطئا
يقول :
ـ يا أمير المؤمنين .. أما وقد رغبتم فيها فما يجوز أن أملك شيئا لكم فيه رغبة ، وقد أهديتها إلى أمير المؤمنين ، فإن أكبر ما يتناهى إليه أمل هذه الجارية أن أصيرّها إليه ، فبارك الله لك يا أمير المؤمنين فيها ! ..
وتهدج صوت سيدى فى آخر كلماته هذه كأنه ينتزع روحه من بين جنبيه ، فلم يبال الواثق بحاله هذه التى تدعو للشفقة ، وقال له :
ـ قد قبلنا الهدية ! ..
ثم التفت إلى ابن الزيات الوزير وقال
ـ ادفع إليه خمسة آلاف دينار ! ..
فكادت الأرض تميد بى ، فقد انحط ثمنى من مائه ألف دينار وولاية مصر ، إلى خمسة آلاف دينار ! ..

● اليوم الخامس :

تسللت إحدى الجوارى وأخبرتنى أن سيدى السابق صالح بن عبد الوهاب يستنجد بى ، لأن الوزير المتعسف ابن الزيات قد مطله بثمنى فلم يعطه دينارا واحدا ، فضاعت منه مائة الف دينار وولاية مصر .. ثم ضاعت الألوف الخمسة المتواضعة من الدنانير ! .. فكأنه أهدانى للخليفة بلا مقابل ، أو باعنى بلا ثمن ! ..
غنيت الخليفة لحنا جميلا فطرب وقال له :
ـ بارك الله فيك وفيمن رباك وعلمك ! ..
قلت :
ـ ياسيدى ... وما نفع من ربانى منى إلا التعب والغرم على تربيتى ثم الخروج منى صفر اليدين ؟ !
قال متعجبا :
ـ إنى أمرت له بخمسة آلاف دينار ! ..
قلت
ـ بلى .. ولكن ابن الزيات لم يعطه شيئا ! ..

فغضب الواثق ودعا بخادم من خاصة خدمه ، وكتب إلى ابن الزيات بحمل الخمسة آلالاف الى سيدى ومعها خمسة آلاف دينار أخرى .

وأخذ الخادم بيد سيدى الى ابن الزيات ، فجزع الوزير وقال لسيدى :

ـ أما الخمسة الآلاف الأولى فخذها فقد حضرت وهذه هى فى متناول يديك ! .. وأما الأخرى فأنا أدفعها إليك بعد أسبوع ! ..

فأخذ الخمسة الأولى ومضى وانتظر الوزير فتناساه كأنه لم يعرفه ! ..

فبلغنى أن سيدى صالحا لما تجاهله الوزير ومطله بالخمسة الأخرى كتب إليه يقتضيه ، ثم خشى أن يلفق له الوزير تهمة ويدخله فى «التنور» الذى يرمى فيه من يغضب عليهم .. وكان ابن الزيات غليظ القلب ، يقول «الرحمة خور فى الطبيعة» .. وبحث الوزير عن سيدى فلم يجده فى أى مكان يعرفه فخاف أن يعود فيشكوه للخليفة ، فأرسل إليه المال المتأخر كله بعد أن عثر رجال الشرطة على سيدى ، واستكتبه الوزير كتابا بقبض المال ! ..

اهتم الواثق بقصة سيدى اهتماما كبيرا ، لأنه كان مغيظا من وزيره الذى كثرت منه شكاوى الناس ، وبخاصة من رماهم فى «التنور» وعذبهم فيه أشنع عذاب ! ..

وبعد مدة أرسل لى سيدى من يخبرنى أنه ابتاع بالمال ضيعه طيبة ، جعلها مورد رزقه ، وأقسم ألا يقترب مرة أخرى أبداً من عمل للخليفة أو الوزير أو لأحد من رجال السلطان جميعا .

وقال لى من أبلغنى رسالته إنه أقسم أيضا إلا يشترى جارية مغنية ولا غير مغنية أبداً بعد الآن ، لكيلا تقع عليها رغبة كبير من الكبراء أو عظيم من العظماء ، فإذا عارض رغبته هذه كان فى ذلك حتفه ! ..

ودعوت لسيدى الذى ربانى بطول البقاء !

فهـــــرس

صفحة

مقدمة ٥

يوميات جميلة :

المغنية الأولى ٧
أحزاب الغناء ١٥
زينة الجوارى ٢١
عندما يطرب عمر بن أبى ربيعة ٢٧

يوميات الغريض :

قتيل الجن ٣٥

يوميات سلامة القس :

أزهد الناس .. وأطرب الناس ٤٣

يوميات حبابة :

للحب وقت وللموت وقت ٥١

يوميات أحمد بن اسامة :

مخترع النصب ٥٧

يوميات ابن عائشة :

الوليد والساقى ٦٥

يوميات عطرد

سقوط الفساد ٧٣

يوميات عمر الوادى :

المهندس المغنى ٨١

يوميات دحمان :

المغنى والقاضى ٨٩

يوميات الزبير بن دحمان :

الغناء فى الصحراء ٩٧

يوميات ابن جامع :

مطرب من قريش ١٠٥

يوميات اسحاق الموصلى

ذكريات البرامكة ١١٣

يوميات دنانير البرمكية

غيرة زبيدة ١١٩

يوميات دنانير الكناسية :

جارية الرجل الصالح ١٢٧

يوميات مخارق :

هدية الموصلى إلى البرامكة ١٣٥

يوميات علية :

بين الغناء والتسلية ١٤٣

يوميات الملكى الصغير :

المغنى الراوية ١٥١

يوميات علوية :

الضرب باليد اليسرى ١٥٨

الشاعر الخلنجى ١٦٣

يوميات محمد الزف :

مسجل الأصوات ١٦٩

يوميات عبدالله الربيعى :

ابن الحاجب والوزير ١٧٥

يوميات قلم الحسناء :

مائة ألف دينار .. وولاية مصر ١٨٣

يوميات المغنين والجوارى



الجزء الأول

يطلب من دار الهلال
والمكتبات الشهيرة



رقم الايداع ٢٠٥١ / ٨٨

الترقيم الدولى : ٧ - ٣٤٢ - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN

٣٠٠ قـرش